محمد

رسول الله ﷺ منهج ورسالة

بحث وتحقيق

الشيخ / محمد الصادق عرجون

الجزء ٢٩



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

غزوة تبوك وهي غزوة العسرة
أسبابها وأحداثها وآثارها

هــذه الغزوة كانــت آخر خرجات رســول الله ﷺ قائدًا لحشــود المجاهدين داعية إلى الله ونشــر رسالة الإسلام، وتسمى هذه الغزوة عند جمهور أصحاب المغازي ومدوني أحداث الســيرة النبوية غزوة (تبوك) تســمية لها باســم عيــن هناك، وقــد جاء اســم العين بهذا الاســم في حديــث معاذ عند مالك ومســلم، قال معــاذ: خرجنا مع رســول الله ﷺ، فقــال: «إنكم ســتأتون غدًا إن شــاء الله تعالى عين (تبــوك) فمــن جاءها فلا يمس من مائها شــيئا» فجئناها وقد ســبق إليهــا رجــلان، والعين مثل الشــراك تبض بشــيء من مــاء، وقد لام النبي ﷺ الرجلين اللذين سبقا إليها، فاستقيا منها، ونقشاها فقال لهــم ﷺ: «ما زلتــم تبوكانها منــذ اليوم[1]، فلذلك ســميت العين تبوك» ثم غســل ﷺ وجهه ويديه بشــيء من مائها، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء غزير، فاســتقى الناس وتطهروا، ونالوا حاجتهم مــن المــاء، وهذه معجــزة من معجزاتــه ﷺ الكونية التــي أكرم الله تعالــى بها نبيه ﷺ تشــريفًا لمقامه وتعظيمًا لقــدره المنيف، وقد بلغــت [هــذه المعجزات] في كثرتهــا وثبوتها بأســانيد عليّة مبلغ التواتر في جملتها، ولم يقع بشــيء منهــا التحدي العام الذي انفرد به القرآن الكريم.

وهذا المكان الذي فيه عين تبوك أقرب إلى الشام منه إلى الحجاز، إذ بينه وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة، وبينه وبين المدينة المنورة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة على نحو النصف من طريق المدينة

---

(١) البوك: تثوير الماء أي تحريكه عند الاستقاء منه، انظر: الغريبين في القرآن والحديث. (المجلة)

إلى دمشق، وإنما سميت هذه الغزوة بهذا الاسم الذي شهرت به في أحاديث المغازي والسير على نسق ما عهد في تسمية الغزوات بأسماء الآبار والعيون والأودية، لأنها أماكن التجمع للقبائل التي تنزل البطاح التي حولها، كما سميت غزوة بني المصطلق باسم (المريسيع) وهي عين لهم يكون عندها تجمعهم لسقي سرحهم، وكما سميت غزوة هوازن باسم وادي (حنين) وهو واد كانت فيه الموقعة، وبه جاء القرآن الكريم، وكما سميت غزوة أوطاس باسم أعظم أوديتها.

وقد سمى البخاري -رحمه الله- هذه الغزوة في صحيحه غزوة (العسرة) أخذا من قوله تعالى في التنويه بشأن المؤمنين الذين نهضوا مع رسول الله ﷺ لها سراعًا، سامعين مطيعين، وهم يعلمون ما فيها من شدائد ومشقات

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾ (التوبة: ١١٧)

بيان معنى التوبة في حق النبي ﷺ:

والتوبة على النبي ﷺ التي جاء بها التعبير في هذا النص المحكم من آيات القرآن العظيم إنما هي تشريف لمقامه المنيف، وتعظيم لقدره الشريف، ورفع لدرجاته في مقامات الترقي الأرفع في مصاعد القرب، لمكانه ﷺ من ذروة العصمة، فهي ليست توبة من ذنب، إذ لم يكن منه ﷺ ذنب قط، وإنما هي حالة انتقال من مقام في مصاعد القرب، وشهود عظمة الله وجلاله في آياته الكبرى التي انطوت عليها أسرار الكون إلى مقام أجل وأعظم منه، وبيان أن النبي ﷺ وهو أفضل مخلوقات الله لا يخرج عن كونه عبد الله ورسوله، ومقام الرسالة يزيده رفعة في مقام العبودية الذي هو أعظم مقامات

القرب المنوه به في قوله -عز شأنه- خطابًا لأعز عباده:

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق: ١٩)

وإبــراز هــذا المعنى الســامي في أســلوب الآية بلفــظ (التوبة) المقتضــي في عرف الشــرع العام وقوع ما منه يتــاب إظهار لضراعة العبودية التي لا يخرج عنها أحد من مخلوقات الله في الأرض ولا في السماء بين يدي جلال الربوبية.

معنى التوبة على المهاجرين والأنصار في الآية:

والتوبــة علــى المهاجرين والأنصــار الذين اتبعــوا النبي ﷺ في النهوض إلى هذا الوجه للجهاد، وسرعة الاستجابة لندائه ﷺ حينما أعلن لهم أنه يريد أن يتخطى بهم أسوار الجزيرة العربية، بعد أن تم لهم فتحها، وانصاع أهلها لدعوة الإســلام، لينشروا دعوته ويبلغوا بعده رسالته إلى العالمين تحقيقا لعمومها في آفاق الحياة، وتطبيقًا عمليًــا لنصوص العموم التــي أنزل بها القرآن الكريــم في كثير من بيّناته، مثل قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾

(الفرقان: ١)

فهــي توبــةُ تَفَضُّل مــن الله تعالى علــى هؤلاء الصفــوة من خُلَّص المؤمنيــن، تنويهًا بذكرهــم وبيان فضلهم في تحقيــق ما نيط بهم من نشــر الدعوة إلى توحيد الله، وتبليغ رسالة النبي ﷺ إلى الأحمر والأســود من ســائر أجيال الإنســانية، جيــلًا بعد جيــل، فهي توبة تفضل من قبيل ما جاء في أهل بدر من تفضل عليهم بالمغفرة العامة لذنوبهم، فعاشوا كرامًا مطهرين، وشارك من كان حيًا منهم في هذه الغزوة فجمع الله لهم الحســنيين، حسنى حمل لواء تأسيس الجهاد لتثبيت أقدام الدعوة وإنشــاء كتائبها المجاهدة، وحسنى حمل لواء

عموم الدعوة، وتبليغ الرسالة إلى الآفاق.

فهي توبة تكليف بالجهاد الفكري والقتالي حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد التبليغ، وهي توبة تضع منهج الرسالة في عمومها موضع العمل الإيجابي، حتى يستقر في قلب كل فرد من أفراد الأمة أن حمل لواء الجهاد والسير به لتبليغ الدعوة إلى مَنْ قَرُبَ ومن بعد، جزء من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله، إشعارًا لهم بوجوب تطهرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء المذل، حتى يجعل الله منهم وممن يخلفهم في حمل لواء الدعوة مجتمعًا يدّرع الاعتصام بالله تعالى في نشر خاتمة رسالاته، وتبليغها إلى القاصي والداني بالحجة النيرة، والبيان الناصع.

وعلى أيدى هؤلاء الصفوة تمت أربح صفقة بينهم وبين ربهم -جل شأنه- في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(التوبة: ١١١)

ومع هؤلاء الصفوة وضع منهج السير بالدعوة، فكانت أول خطوات هذا السير المتدرج المحكم أن تقف الدعوة بحجتها وقوتها الفكرية والمادية مع الذين يلون منبعها ويقربون من هذا المنبع، وذلك قوله تبارك وتعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٣)

وقـد وضعـت غـزوة العسـرة (تبـوك) الأمـة كلها علـى طرف المسـيرة، وتنزَّل إليها الإذن بالسـير في هذا النـداء الذي بدأت به آيـة التدرج في الجهـاد، والغلظة التي جاءت فـي الآية موضعها بعد استنفاد كل طرائق الحجة والبيان، ولذلك جاءت بعد الأمر بالقتال، لا بعد الأمر بالجهاد، والقتال في الإسـلام لا يكون جهادًا في سبيل إعلاء كلمة الله إلا بعد الدعوة وبسط الحجة، وتعقيب الأمر بالقتال مع الغلظة بقوله تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

تحذير زاجر للتحرز من تخطي سدة منهج الدعوة إلى الله الرءوف الرحيم بتجاوز الحد، وقتل من لم يكن من أهل القتال.

حكمة تخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر في الآية:

وتخصيـص المهاجرين والأنصار بالذكر في جانب توبة التفضل بالفضـل والإنعام تنويـه بسـابقتهم، وفدائيتهم وقـوة إيمانهم في إرسـاء صرح الجهاد، وإقامتهم معالم أسـاس عموم الرسالة الخاتمة الخالـدة، ليكونوا قـدوة لمن يخلفهم من أجيال الإسـلام في حمل لـواء المسـيرة بالدعوة وعـدم توقفها عن هدفها الـذي ينبغي أن لا تحط رحالها مسترخية إلا بعد وصولها إليه.

لماذا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة:

وإنما سـميت هذه الغزوة (غزوة العسـرة) لأنهـا كانت تدريبًا على أعتى أنواع المشاق التي ستقابل المجتمع المسلم في مسيرته وهو يحمل الدعوة إلى الله، ويدعو لتبليغ رسالة الهدى إلى الإنسانية أينمـا وجدهـا، كما أن هـذه الغزوة كانـت امتحانًا شـاقًا لإخلاص الإيمـان فـي قلـوب الذين اصطفاهـم القـدر الإلهي لقيادة مسـيرة الإسلام، فقد أحاطت بها الشدائد، واكتنفها العسر من كل جانب،

منــذ كانت بذرة في غيب التكليــف، وقد كان الخروج إليها في حر شــديد، وقيظ محرق، وجدب قاحل، وســفر بعيــد إلى عدو كثير، لــه من القــوة ما كان يهز مجــرد ذكره وذكرها الكيــان العربي رعبًا وتهيبًا، مع عدم توافر أضعف الوســائل لحمل حشــود المســلمين، فلا ظهر ولا ماء، ولا مؤن من الطعام، ولا أهبة في السلاح، مع كثافة عدد الجيش الذي لم يخرج مثله في غزوة من الغزوات.

ومن ثم خرج بها النبي ﷺ عن ســنته في غزواته، إذ أعلن عنها، ولم يُوَرِّ ليتأهب لها المجاهدون أهبة توائم ما ســيلقون في مسيرهم إليها من الشــدائد والأزمات، ففي حديث كعب بن مالك -رضي الله عنه- عند البخاري ومســلم قال: لم يكــن ﷺ يريد غزوة إلا وروى بغيرهــا حتى كانــت تلك الغزوة، غزاها في حر شــديد، واســتقبل ســفرًا بعيدًا، وغزا عدوًا كثيرًا، فجلى للمســلمين، أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد.

وفي حديث محمد بن عبد الله بن عقيل بن أبي طالب الهاشــمي عند عبد الرزاق من طريق شــيخه معمر بن راشــد، قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شــديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء وفي الظهر، وفي النفقة، فسميت غزوة العسرة.

اختلاف الروايات في أسباب غزوة تبوك الرواية الأولى وتحقيق القول فيها:

وقــد اختلفت الروايات في ســبب هــذه الغزوة، فعند ابن ســعد وشــيخه الواقدي وغيرهمــا من رواة أحداث الســيرة النبوية ووقائع المغــازي أن النبــي ﷺ بلغه مــن التجــار الذين يقدمــون بتجارتهم مــن الشــام إلى المدينة المنــورة أن هرقل جمع الــروم الذين توطنوا الشام، وأمرهم بالتأهب، وأعطاهم رزق سنة ليتفرغوا من أعمالهم،

ويستعدوا لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، واستجاب لدعوة هرقل مع الروم بعض القبائل العربية التي تعيش في جوارهم تحت سلطانهم، وتدين بدينهم، دين النصرانية، وهم لخم، وجذام وعاملة وغسان، وغيرهم من متنصرة العرب، وتحركت مقدمتهم حتى بلغت البلقاء من مشارف الشام، فندب النبي ﷺ الناس لملاقاتهم، جريا على عادته القويمة وسياسته الحكيمة المحكمة في تربيته السلوكية لمجتمعه، وهو يحمل لواء الدعوة إلى الله، مبلغا رسالة النور والحق والهدى والخير إلى أجيال الإنسانية المتتابعة في وجودها مع سيرورة الزمن وتطورات الحياة الفكرية والاجتماعية.

وقد كان ﷺ إذ بلغته أخبار قوم يتأهبون لحربه، ويستعدون لمهاجمة المجتمع المسلم اغترارًا بما تحت أيديهم من قوة مادية، وتجمعات قتالية تتمثل في حشود الكتائب المحاربة، وكثافة الجيوش المقاتلة التي تتوافر لها وسائل التأهب والاستعداد بالرجال المدربين تدريبًا مرموقًا على خوض غمرات الحرب وكثرة الأسلحة التي يملكونها، وهي أسلحة متنوعة، شديدة الفتك، كما تتمثل في كثرة المؤن وتوافرها لكل فرد، مع يسر الحصول عليها، وكثرة الظهر، والخيل المطهمة التي تملك جولات الفروسية في ميادين الكر والفر، وللخيل منزلة خاصة في الحروب، خاصة في العهود القديمة.

في إطار هذا التصور -كما جاءت به هذه الرواية- سار النبي ﷺ إلى هذه الغزوة في جيش عرمرم، لم يجتمع مثله للمسلمين في غزوة من غزواتهم المتعددة، إذ بلغ أكثر من ثلاثين ألفا في أشهر الروايات، مع الأهبة والاستعداد على رغم ما كانوا فيه من عسرة وشدة وقلة في الظهر، والماء والمؤن، وأدوات القتال وأنواع

الأسـلحة، حتى وصل ﷺ بجيشـه إلى تبوك، وأقام بها بضع عشرة ليلـة، ثم عـاد ﷺ بكتائبه إلـى المدينة، بعد أن عقـد مصالحات، وضـرب الجزية على أهـل أيـلا وأذرح وجربة ممن جـاءوه يطلبون مصالحته، ويقرون بالجزية على رقابهم، دون أن يلقى كيدًا.

ولعـل هذه الرواية من أمثل روايات سـبب هذه الغزوة التي رواها أرباب المغازي وأهل السير، وهي مما لا يسرع إليها النظر بالرفض والإنـكار، لأنهـا معقولة المعنى متناسـبة مع سياسـة النبي ﷺ في غزواته التي قادها ﷺ بنفسه الشريفة.

الزرقاني يصرح ببطلان هذه الرواية جريًا وراء الواقدي مع احتمال صحتها:

بيـد أن الزرقانـي في شـرح المواهب صرح ببطلانهـا مرتين في مكانين، فقال مرة بعد أن ساق الرواية: ولم يكن لذلك حقيقة، ولم يذكر الزرقاني سندًا لهذا النفي ولا ندري من أين أخذه.

وقال مرة أخرى تعليقًا على قول القسـطلاني نقلًا عن الواقدي: ووجد هرقل بحمص دار ملكه، ولم يتحرك ولم يرجف، فكان الذي أخبر به ﷺ من تعبية أصحابه، ودنوه إلى الشام باطلًا، لم يرد ذلك ولا هَمَّ به.

والواقـدي مُتَكَلَّم فيه، فـلا يوثق بروايتـه إلا إذا تقوت بنقل من هـو أقـوى وأوثق منـه، وإلا فما وجـه أن ذلك ليس لـه حقيقة، وأنه باطـل، لم يـرده هرقل ولا هم بـه؟ وهل وجود هرقل فـي دار ملكه (حمص) ينفي أن يكون أراد محاربة النبي ﷺ خشـية أن يقوم ﷺ بمهاجمتـه بما لا طاقة له به بعد أن صكت أذنيه انتصاراته ﷺ علي سائر العرب في جزيرتهم العربية، وأنهم آمنوا برسالته وبايعوه علي تصديقهم بها، وأنهم أصبحوا جنوده في كتائب مجتمعه المسـلم،

وأن هرقل وهو بدار ملكه حمص جهز جيشًا من الروم ومن متنصرة القبائل العربية، وأمر عليه رجلًا من قواده كما جاء صريحًا في الرواية الثانية من تأميره قباذ أحد قادة الروم على جيش من أربعين ألفًا وبقي في دار ملكه حمص، وقد كان النبي ﷺ قد أرسل إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام زمن عهد الحديبية، فأظهر هرقل قناعته بصدقه ﷺ، ولكنه خشي على نفسه من قومه وضن بملكه، وظل على نصرانيته، وأراد مهاجمة النبي ﷺ قبل أن يسير إليه بجيوش الكتائب المسلمة، ولكنه عاودته قناعته بأن محمدًا ﷺ رسول من الله -تعالى- يجده في كتبهم، فرد جموعهم التي حشدها مع قائده الروماني بعد أن وصلت إلى البلقاء، وبعد أن بلغ النبي ﷺ أمر تجمعاتها لحربه، سار إليها بكتائبه فلم يجد لها أثرا، وكتب له النبي ﷺ كتابًا آخر غير كتابه الأول يجدد فيه دعوته إلى الإسلام، وهذا الكتاب الثاني كتب في تبوك، ومنها أرسل إلى هرقل، حمله إليه دحية بن خليفة الكلبي، وهو رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل بكتابه الأول الذي كُتب سنة ست في مدة عهد الحديبية، وهذا الكتاب في صحيح البخاري في بدء الوحي.

أما الكتاب الثاني الذي كتب في تبوك وأرسل منها فقد رواه ابن حبان والإمام أحمد وأبو يعلى، قالوا: قدم ﷺ تبوك، فبعث دحية إلى هرقل، فلما جاءه الكتاب دعا القسيسين والبطارقة، وأغلق عليهم وعليه، فقال: إن هذا الرجل -يريد النبي ﷺ- يدعوني إلى الإيمان برسالته، وبما جاء به من الدين الحق دين الإسلام. والله لقد قرأتم فيما تقرءون من الكتب: ليأخذن ما تحت قدمي، فهلم إلى أن نتبعه، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى إن بعضهم خرج عن بُرنسه، فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم، قال: إنما

قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم كما قدمنا، وأنه كتب إلى النبي ﷺ وبعث بكتابه رجلا من تنوخ، وأوصاه أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ عند قراءة كتابه، ويسجله.

قال ابن حجر في الفتح: وروى ابن حبان أنه ﷺ كتب إليه بتبوك يدعوه إلي الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب، وفي مسند أحمد أنه كتب إلى النبي ﷺ: أني مسلم، فقال ﷺ: «وكذب بل هو على نصرانيته».

أليس في كل هذا قرائن قوية وأمارات ظاهرة على أنه لا ينبغي الجزم بالحكم بغير حجة بينة بأن ما جاء في هذه الرواية عن سبب هذه الغزوة باطل، وأنه ليس له حقيقة، وأن هرقل لم يرده، ولا هم به.

الرواية الثانية في سبب غزوة تبوك والتعليق عليها:

أما الرواية الثانية في سبب هذه الغزوة فهي ما رواه الطبراني عن عمران بن حصين، وما رواه الترمذي والحاكم من طريق عبد الرحمن بن خباب كما جاء في فتح ابن حجر: أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل تقول له: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن، فبعث هرقل رجلا من عظماء قواد الروم، يقال له قباذ، وجهز معه أربعين ألفا من الروم، ومن متنصرة العرب، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ولم يكن بالمسلمين قوة للذهاب إلى أرضهم لملاقاتهم لفقد الظهر، وقلة النفقة، وشدة الحر، وبعد السفر، وهيبة العدو.

وهذه الرواية يبدو من سياقها وبعض عباراتها أنها ملفقة من بعض ما جاء في الرواية الأولى، ومن بعض ما تزيد به ضعفة الرواة الذين يلتقفون ما يلقى إليهم في حلقات القُصَّاص ومجالس السمر،

وقد نص الزرقاني على ضعف سند حديثها، واكتفى بإيرادها ولم يعلق عليها بشيء.

الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ونقد ابن كثير لها:

الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ما تردد في كثير من كتب التفاسير التي لا يعنيها تحقيق الروايات في أسباب النزول، لا سندًا ولا متنًا، فقد ذكروا في سبب نزول قوله تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٦، ٧٧)

عدة روايات اعتمد على بعضها أهل المغازي والسير الذين رأوها تذكر في سبب غزوة تبوك فجعلوها سببًا لها.

قال ابن كثير: قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على النبي ﷺ بسكنى الشام، بلد الأنبياء، وترك سكنى المدينة، وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك، وهذا التعليل في بيان ضعف القول بهذه الرواية ضعيف، لم يبين ابن كثير له حجة، ولا ذكر له سندًا، وقد عرفنا في بحوثنا أن ابن كثير يعتمد في مكية الآيات ومدنيتها على ما قيل في السورة: أنها مكية أو مدنية، وهذا قول يعني الأغلبية من آيات السورة، ولا يعني جميع آياتها وكثير من سور القرآن نُص على مكيتها باعتبار أغلب آياتها، ووضعت فيها آيات مدنية لمناسبة معانيها لمعاني بعض آيات السورة فذكرت معها توقيفًا من النبي ﷺ.

ثم قال ابن كثير: وقيل: إنها نزلت بتبوك، وفي صحته نظر، ثم روى ابن كثير عن البيهقي أنه روى عن الحاكم عن الأصم، عن أحمد

بن عبد الجبـار العطاردي، عن يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شـهر بن حوشـب، عن عبد الرحمن بن غنم: أن اليهود أتوا رسـول الله ﷺ يومًا، فقالوا: يا أبا القاسـم إن كنت صادقًا أنك نبـي، فالحق بالشـام، فـإن الشـام أرض المحشـر، وأرض الأنبياء، فصـدَّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشـام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد أن ختمت السورة

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

(الإسراء: ٧٦، ٧٧)

فأمـره الله بالرجـوع إلى المدينـة، وقال: فيها محيـاك ومماتك ومنهـا تبعـث، قال ابن كثير: وفي هذا الإسـناد نظـر، والأظهر أنه ليس بصحيح. وهذا من حذق ابن كثير وبراعته في الروايات سـندًا ومتنًا، في كثير مما ينقل في تفسيره وتاريخه.

تفنيد هذه الرواية متنًا وبيان سخفها وبطلانها:

وكان هـذا الـرأي الذي صرح به ابـن كثير كافيًا في إلقاء سـتر الظـلام علـى هـذه الرواية الكاذبـة، واليهـود أمة الكـذب الأبله، والنفاق الفاجر، وحسب هذه الرواية ما جاء فيها من سخف، يجعل من محمد رسـول الله ﷺ، سـيد الخلق، وأكملهم عقلا، وأعلمهم بـالله تعالى، وسـننه العامـة والخاصة فـي الكون إنسـانًا تلقى إليه الكلمات من أخبث من عرفت الإنسـانية مـن ذرائع الفجور فيهم، هكـذا إلقـاء عابرًا فيصدقهـا، ويرتـب عليها غزوة لـم يعرف في تاريخ الإسـلام غزوة أشق ولا أعسـر منها، كما لم يعرف في تاريخ الغزوات كلها غزوة حشد لها جيش أعظم عددًا من جيشها، ويسير

رسـول الله ﷺ بهـذا الجيـش العرمرم إلى الشـام ولا يريـد غيره، تحقيقـا لأكذوبة سـخيفة تنهضه من مقره ومقر مجتمعه المسـلم ليترك هذا المقر ويقيم بعيدًا عنه إقامة أبدية بعد كل ما أنعم به الله عليه وعلى مجتمعه المسـلم في هذا المستقر الذي ثبت أنه مأمور بالهجـرة إليه، وكان لـه ﷺ ولمجتمعه الذي ربـاه وبنى كيانه في هذا المسـتقر إنزال ما جاءت به رسـالته من تشريع وأحكام وآداب ونظم اجتماعية واقتصادية، وتربية سلوكية تم بها جميعها إكمال الدين له ﷺ ولمجتمعه المسـلم في جميع أجياله، وأتم عليهم في هذا المسـتقر نعمته، ورضي لهم الإسـلام دينًـا، والمدينة المنورة مسـتقرًا ومـلاذًا، جعلها الله دار الإسـلام ومتبوأ الإيمـان، ثم ينزل الله تعالـى عليـه في تبوك آيات ترده إلى مسـتقره، ويأمره بالرجوع مـن تبوك إلى مدينته بعد تحمله وتحمل جيشـه كل هذه المشـاق والعُسَـر التي فاقت تحملات طاقة البشـر، ويقول لـه فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث.

سـبحان الله؟! مـا الذي يبقى لسـيد المرسـلين وخاتـم النبيين محمد ﷺ من معالم العصمة التي هي شـرط لتحقيق النبوة وصدق الرسـالة وراء هذا الانصياع لكلمة سـخيفة وأكذوبـة فاجرة يلقيها إليه أعدى أعداء دينه، وأبغض الفجرة الكافرين لرسـالته حسدًا من عند أنفسهم؟

وما الذي يجعل المؤمنين برسـالته ﷺ، الباذلين في سبيل نشـرها أموالهـم وأرواحهـم، يربطـون على قلوبهـم بعواصم الثقـة الإيمانية في تبليغه لهم شـرائع هذه الرسـالة وأحكامها ونظمهـا إذا علموا أنه ﷺ كلفهم هذه المشـقة الآزمة لمجرد كلمة سـخيفة من أفجـر أكاذيب خبثاء اليهـود الملعنين على

ألسـنة الأنبياء والمرسلين؟ وما الذي يجعل من الذين يُدْعَون إلى اعتناق هذه الرسالة إيمانًا بها وتصديقًا لحامل أمانة تلقيها ووحيها قومًا يعلمون أن وحيها من الله لتبليغها إلى العالمين في مشارق الأرض ومغاربها؟ هذه رواية ساقطة سخيفة ما كان ينبغي أن تدون في كتاب يحمل شرف الحديث عن الإسلام وهدايته، وعن محمد سيد الوجود ورسالته وأحداث وأحاديث سيرته؟

بيد أن البَلَه والغفلة العقلية إذا تسلطا على بعض من نُظِموا غلطًا في سلك العلماء أفسدتا عقولهم، فجعلتهم يقبلون كل غثاء يروى تكثرًا وتعالمًا، غافلين عما يجره ذلك من شرور وأضرار على الدعوة ونشرها.

وهذا النحو من الروايات الساقطة التي لعب بها اليهود والملحدون أدوارًا عصيبة في تشويه جمال الإسلام لا يزال ضررها جاثمًا ينفث سمومه، إن لم يتداركه أهل العلم من العلماء بتبيان ما فيه من زيف وخبث وأباطيل كذب بها على دعوة الإسلام وقبلها البُلْهُ من أهل الغفلة المتعالمين.

الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة وتحقيق ما جاء فيها:

الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة من رواية ابن مردويه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وما رواه ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن مجاهد، وما رواه ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير، من أن سببها أن الله تعالى لما منع المشركين من قربان المسجد الحرام قربانًا مطلقًا في حج أو غيره، في قوله

تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(التوبة : ٢٨)

والإشارة عائدة على العام العاشر الذي حج فيه النبي ﷺ بعد حجة أبي بكر بالناس في العام التاسع الهجري، كما حققه القاضي أبو بكر بن العربي.

والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله، أخذًا من قوله تعالى :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾

(الإسراء : ١)

وإنما أسرى به ﷺ من بيت أم هانئ على أرجح الأقوال في بدء الإسراء، وبيت أم هانئ من الحرم، لا من المسجد الحرام.

وقد اختلف العلماء في سائر المساجد، هل يدخلها مشرك ؟ وهل يدخلها أحد من أهل الكتاب، يهودي أو نصراني، فأخذ بعضهم بمنطوق الآية، فجعل الحظر قاصرًا على خصوص المسجد الحرام، وعمم في داخليه، وبعضهم أخذ بالمعنى الذي كان من أجله المنع، وهو الذي أشير إليه بقوله قبل أن يأتي النهي :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

وهذا متحقق في سائر المساجد، والمسألة مفصلة في كتب فقه مذاهب أئمة الأمصار من علماء الأمة.

ولما نزلت هذه الآية بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام، وكانوا يجلبون الأطعمة والتجارات للمسلمين إلى مكة، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر والعيلة، وقالوا : من أين نعيش، فوعده الله أن يغنيهم من فضله .

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾

لما حرم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها، فوعدهم الله أن يغنيهم عما كان يجلبه أولئك المشركون من التجارات، فأحل لهم الجزية، وكانت لم تؤخذ قبل ذلك، فجعلها عوضًا ممًا منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم.

وكذلك عوضهم بما يغنمونه من مقاتلة الذين يلونهم من الكفار بعد أن أصفقت الجزيرة العربية على الإيمان برسالة النبي ﷺ فقال تعالى يعلمهم بعموم الجهاد بعموم الرسالة، ويحرضهم على قتال من كان خارجًا عن نطاق الجزيرة متدرجًا بهم، وكانت الخطوة الأولى في نشر عموم الرسالة هي ما تقتضيه طبيعة التحرك الإيجابي المقدور عليه في غير رعونة ولا تهور:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

(التوبة: ١٢٣)

وهذه الغلظة المذكورة في الآية إنما جاءت لتذيب ما كان في نفوس العرب قبل الإسلام من تهيب للأمم الذين حولهم، وما كان في قلوبهم من رعب وخوف في التفكير في مواجهتهم للحرب والقتال، نظرًا لما كان عند أولئك الأمم -لا سيما الروم والفرس- من قدرات مادية ورجال مدربين على أنواع الحروب، وأسلحة منوعة وأموال طائلة، ومؤن متوافرة، فجاء ذكر الغلظة في الآية تجريئًا للمسلمين على مواجهة أولئك الكافرين، وإعدادًا لهم للخروج بالدعوة إلى

الآفاق الإنسانية في ظل من سياسة التدرج الحكيم، وبيانًا بأن القوة المادية ليست هي السبب الوحيد للنصر.

ترجيح هذه الرواية على سائر الروايات مع شيء من التوضيح:

هذه الرواية هي التي أصابت الهدف في بيان سبب هذه الغزوة، وهي التي قرطست على السبب الحقيقي للقيام بها وتحمل مشاقها وأزماتها وشدائدها وعسرها وباهظ تضحياتها، وما جاء في قصتها في القرآن الكريم من معاتبة عنيفة لمن تخلف عنها مؤمنًا مخلصًا، وما جاء فيها من شدة الوعيد الزاجر، والزجر المقرع لمن تخلف عنها وهو غير مؤمن بقلبه، وما جاء فيها من غمز قناة المعذرين من الأعراب المستأذنين في القعود عن الجهاد مع الخالفين، إرجافًا بالنبي ﷺ ومجتمعه المسلم، بما لم يكن لهم فيه عذر، ولكنهم تعللوا بالمعاذير الكاذبة، وحلفوا له ﷺ فقبل ظاهر اعتذاراتهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وجاء في مغازي ابن عقبة: لما دنا ﷺ من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا، فقال لأصحابه:

«لا تكلموا رجلًا منهم، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم»

فأعرض عنهم ﷺ هو والمؤمنون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه، وإن المرأة لتعرض عن زوجها، فمكثوا كذلك أيامًا حتى كرب الذين تخلفوا، وجعلوا يعتذرون بالجهد والأسقام، ويحلفون له ﷺ فرحمهم وبايعهم واستغفر لهم.

ومن ثم كان السبب الحقيقي لهذه الغزوة إنما هو توجيه المجتمع المسلم توجيهًا إيجابيًا عمليًا لتنفيذ عموم الجهاد لعموم الرسالة، ولذلك احتفل بها النبي ﷺ احتفالًا عظيمًا

ضخمًا فحشد لها جيشًا عرمرمًا كثيفًا استوعب أكثر الذين كانوا أهلًا لحمل راية الجهاد، وقادهم رسول الله ﷺ بنفسه، واشتد فيها العتاب والزجر على عموم الذين تخلفوا، ثم أكرم الله تعالى من شاء إكرامه منهم بالتوبة وعظيم الحفاوة، حتى توضع الرسالة في عمومها -والنبي ﷺ بين ظهراني مجتمعه المسلم ليضع هذا العموم موضع العمل- في صورته الجامعة لكل ما ينهض بالحياة، حتى يبلغ بها مداها المقدور لها في لوح الغيب، والتقدير ليستقر في قلب أفراد الأمة وجماعاتها أَنَّ حَمْلَ لواء الجهاد والسير بالدعوة لتبليغها إلى من قرب ومن بعد من الأحمر والأسود من أبناء الإنسانية وأجيالها وأوطانها جزءٌ من الإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات الله تعالى، إشعارًا للمجتمع المسلم بوجوب تطهرهم من دنس الركون إلى الاسترخاء الذليل المذل، حتى يجعل منهم وممن يخلفهم في حمل لواء الدعوة لإعلاء كلمة الحق والهدى مجتمعًا يدّرع الاعتصام بالله في نشر رسالته وتبليغها إلى القاصي والداني، وذلك- بالحجة النيرة، والبيان الناصع، والحكمة البالغة والموعظة الحسنة، فالجهاد القتالي في رسالة الإسلام لا يكون إلا بعد التبليغ والبيان.

إعداد المجتمع المسلم نفسيّا وماديًا لتحقيق نشر عموم الرسالة سبب هذه الغزوة:

كان هذا السبب الحقيقي في النهوض لهذه الغزوة -التي ختمت بها الغزوات الداخلية في نشر الرسالة بين القبائل العربية الذين أعدوا ليكونوا مددًا للغزو الخارجي، يتطلب إعدادًا نفسيًا، وإعدادًا لكتائب الجهاد أولًا- وهي الكتائب التي تقف في وجه

أعـداء الله وأعداء رسـوله ودعوته إلى الله لتباشـر القتال إذا ألجئت إليـه، دفاعًا عن كيانها وتمهيدًا لطريق مسـيرتها، وإزاحة العوائق التي تقام أمامها.

وإعـدادًا لكافة عناصر المجتمع المسـلم كلهـا، وهي العناصر التـي تقف وراء هـذا المجتمع في قواعدها لتمـده بأقصى ما تملك من قوة نفسـية، وطاقات روحية ومادية، لتجعل منه حركة إيجابية، يزجيهـا الأمـل المتوثب الـذي يجب أن يمـلأ قلوب جميـع أفراد المجتمـع وجماعاتـه التي يركب منها عناصر بنائـه باعتباره وحدة إيمانية، ووحدة اجتماعية تكافلية متعاونة.

وهـذا المعنـى هو الـذي ربى النبـي ﷺ مجتمعه المسـلم على أساسـه، وأقـام بنـاءه علـى دعائمه فيما عقـده ﷺ بين أفـراد هذا المجتمع وجماعاته مـن أواصر المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي قامـت علـى قواعد المؤاخـاة الإيمانيـة التي عقدهـا الله بين جميع المؤمنيـن، فجعلهم أخوة يتحابون في الله، ويجاهدون أعداء الله في الله، فقال مخبرًا عنهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)

وضمـن لهـم بهذا العقد الـذي لا تحل أواصـره، ولا تنفك عراه الهداية إلى سـبله ما داموا مسـتقيمين على هدايته، لا يسـلم مسلم مسلمًا ولا يخذله، فقال -جل شأنه-: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت: ٦٩)

النبي ﷺ يضع شعار الإخاء التكافلي بين المجتمع المسلم:

وقـد وضـع النبـي ﷺ شـعار هـذا الإخـاء التكافلي أمـام أعين مجتمعـه ليسـتقيم على نهجه، فقـال: «المؤمن للمؤمـن كالبنيان يشـد بعضه بعضًـا» [صحيـح البخاري] وقال: «مثـل المؤمنين في توادهـم وتراحمهم كمثل الجسـد إذا اشـتكى منه عضـو تداعى له

سائر الأعضاء بالسهر والحمى» [صحيح مسلم] وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله»[صحيح البخاري].

ثم أخذ النبي ﷺ بوصفه القائد الأعظم لمجتمعه المسلم، وبوصفه صاحب الرسالة العظمى خاتمة الرسالات الإلهية، وبوصفه خاتم النبيين فلا نبي بعده يوحى إليه بشيء قط من الوحي الإلهي الذي اكتملت آياته وهدايته في هذه الرسالة العامة الشاملة، رسالة الإسلام المنزلة على محمد ﷺ وهي الرسالة التي يجب على حاملي ألويتها أن يبلغوها إلى الأمم والمجتمعات الإنسانية بلاغا هاديا -في الإعداد النفسي لمجتمعه حينما عزم على النهوض لهذه الغزوة، فأعلن عنها ليتأهب لها الناس، ويقدروا مشقاتها، ويتمثلوا متاعبها وشدائد المسير إليها، وما سيقابلهم في هذا المسير من أزمات وعسر...

ولم يصرح خشية أن تبلغ أخبار عزيمته أعداءه الذين يتأهبون لمهاجمته فيهربون من ملاقاة كتائبه، أو يضاعفون الإعداد لملاقاته، وذلك لتقارب مضارب القبائل، وشدة الترابط بينها مما يسهل نقل الأخبار إليها.

الإعلان عن غزوة تبوك إشعار بعظم منزلتها بين الغزوات:

أما في هذه الغزوة فقد كانت الأحوال في إبانها شديدة شدة سماها الله تعالى ساعة العسرة، وكان هذا تعبيرًا يحمل في طياته من شدائد الحياة ومشاقها ما لم يترك وراءه مشقة ولا شدة إلا طواها بين جوانحه.

قال ابن إسحق راويًا عن شيوخه: إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام

في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قل ما يخرج في غزوة إلا كنى عنها إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد إليه، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم.

الإعداد النفسي للمجتمع المسلم لهذه الغزوة كان ملائما لعظمة هدفها:

هذا الإعداد النفسي للمجتمع المسلم في غمرة هذه الشدائد والمشقات البالغة في محنها وتمحيصها مبلغًا لم يترك فردًا إلا مسه بوخز آلامه كان إعدادًا لمستقبل مليء بالبلاء والمحن، فكان لونًا من التربية على تحمل المشقات الباهظة في سبيل تبليغ رسالة الهدى والخير، ونشر دعوة الحق والعدل والنور، وترك الاسترخاء المتثائب في ظل الترهل والتمتع بزخارف الحياة ومتعها ولذائذها الفانية.

واستجاب المجتمع المسلم لقائده الأعظم، ورسوله الأكرم، وأخذ الناس في التأهب والاستعداد لمسيرهم الذي لا يرجون فيه إلا رضاء الله وثوابه وقيامًا بحق الوفاء بتبليغ الرسالة العامة إلى الناس كافة.

ونظر النبي ﷺ إلى الناس وهم يعملون سراعًا في تأهبهم بأقصى ما في طاقتهم من الاستطاعة، فرأى أعدادًا وفيرة وحشدًا كثيرًا من الرجال الذين استنفروا فنفروا، ورأى ﷺ أن تأهبهم المادي الذي تأهبوه لا يقوم بهم في الوصول إلى هدفهم، ولا يبلغ ما استهدفه رسول الله ﷺ من وضع الدعوة إلى الله على مشارف عمومها والتخطي بها إلى ما وراء حواجز الجزيرة العربية وقبائلها، لتنطلق بإذن الله إلى آفاق الحياة الوسيعة حيث أجيال الإنسانية السادرة في

الغي والضلال وهي ترزح تحت كلاكل الظلم والطغيان، لخرجهم مـن هذه الظلمات المتراكمة بعضها فـوق بعض إلى نور التحرر من رق العبودية للمخلوقين.

سلطان الضمير والحب كان منبع الإعداد النفسي والمادي:

فشــمر ﷺ للعمل على أن يجعل من هذا الإعداد النفسـي منبعًا للإعداد المادي، إعدادًا يقوم بحاجة هؤلاء المستنفرين في كثرتهم الهائلة وضعف تأهبهم لملاقاة عدوهم، لكنه ﷺ أراد أن يكون هذا الإعـداد المـادي نابعًا من مداخـل القلوب والضمائـر التي يعمرها الإيمـان بإخلاصه، واليقين برسـوخه، حتى يكون طبيعة وخلقًا من طبائـع وأخـلاق المؤمنين على توالـي الأزمان والأجيال، يسـعفهم كلمـا حركوه بدافع الإيمـان، لا أن يكون بالقهر، وإهدار إنسـانية النـاس بمصـادرة أموالهـم، وأخذهم بسـياط الطغيـان، فيكرهون الجهـاد وتنحرف قلوبهم وعقولهم عـن مداراتها في فلك الإخلاص لله تعالى والتعبد له.

أبـو بكر الصديق -رضي الله عنـه- سيد المجتمع المسلم في البذل والإنفاق:

ذكر الواقدي: أن النبي ﷺ حض على النفقة والحُملان في سبيل الله، فجاء المؤمنون بصدقات كثيرة، وكان أول من جاء بصدقته أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- بماله كله، أربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ «هل أبقيت لأهلك شـيئًا» فقـال الصديق رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسـوله، وجـاء عمر بن الخطاب -رضـي الله عنه- بنصف ماله، فسأله النبي ﷺ «هل أبقيت لأهلك شيئًا؟» قال: نعم، أبقيت لهم نصف مالي.

وتنافس صادقو الإيمان من أهل المكارم، والبذل في سـبيل الله،

فحمـل العباس بن عبـد المطلب -رضي الله عنـه- وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن عبادة -رضي الله عنهم-، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية، وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقًا من تمر.

وجهـز عثمـان -رضي الله عنـه- ثلث الجيش، وكان عـدده في أقل تقادير الروايات ثلاثين ألفا، فيكون عثمان وحده قد جهز عشرة آلاف.

إنفاق عثمان كان المثل الأعلى في مكارم الإسلام:

قـال ابن إسـحاق: أنفق عثمان في ذلك الجيـش نفقة عظيمة لم ينفق مثلها أحد، وعن قتادة قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرسًا.

وفـي حديـث الترمـذي وأحمد والبيهقـي عن عبـد الرحمن بن سـمرة قـال: جاء عثمان بن عفـان -رضي الله عنه- بألـف دينار في كمه فنثرها في حجر رسول الله ﷺ قال عبد الرحمن بن سمرة راوي الحديث: فرأيت رسـول الله ﷺ يقلبها في حجره، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم».

وأخرج ابـن عدي عن حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- قال: بعث عثمان بعشـرة آلاف دينار إلى رسـول الله ﷺ فصبت بين يديه ﷺ فجعل صلوات الله عليه يقول بيده-أي يحركها- ويقلبها ظهرًا لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها».

مناقشة ابـن حجر في تأويله لما جاء في حديث حذيفة عند ابن عدي:

طعـن ابن حجر في سـند هذا الحديث، فقال: سـند واه، ثم قال ابن حجر عقب ذلك: ولعلها -أي العشرة آلاف دينار التي جاءت في هذه الرواية- عشرة آلاف درهم، فتوافق رواية ألف دينار.

وقـول ابـن حجر : ولعلها عشـرة آلاف درهم لا تعلـق له بالطعن في سـند الحديـث بالوهي، وإنمـا هو نقد لمتـن الحديث، وتأويل نصـه بمعنى بعيـد ليوافق الرواية الأخرى، ولـو أنصف الحافظ ابن حجر لوقف عند نقده لسند الحديث بالوهي لأنه كاف في رده وعدم الاحتجاج به، ولو جاء متنه بعشرة آلاف درهم.

وقـد عقـب الزرقانـي في شـرح المواهـب علـى كلام ابن حجر فقـال مجيبا عن نقـده لمتن الحديث مع إمـكان الجمع بين روايتي ألـف دينار، وعشـرة ألاف دينـار فقال : ولو صح -أي سـند حديث ابن عدي- أمكن أن الألف جاء بها، والعشـرة آلاف بعث بها، وهذا معناه إمكان الجمع بين متن الحديث في الروايتين إذا صح السـند، وأن الروايتيـن وقعتا معًا، فيكون عثمان بـن عفان -رضي الله عنه- جاء بنفسـه بألف دينار، وبعث مع غيره عشرة آلاف دينار، وحينئذ يكـون مجمـوع ما تبرع بـه عثمان بمقتضـى الروايتين أحد عشـر ألف دينار، ولا وجه لاسـتبعاد ابن حجر ذلـك أخذًا بمضمون رواية الطيالسـي والإمام أحمد والنسائي الصحيحة عن الأحنف بن قيس، قال : سمعت عثمان يقول لسعد بن أبي وقاص وعلي والزبير وطلحة بن عبيد الله : أنشـدكم الله؟ هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : «من جهـز جيش العسـرة غفر الله له» فجهزتهم حتى مـا يفقدون خطامًا ولا عقـالا! قالـوا : اللهم نعم، وهـذه رواية مطلقة شـهد بها أفضل من بقـي من أخصاء الصحابة -رضي الله عنهـم-، وهي صريحة بأن عثمان -رضي الله عنه- جهز جيش العسـرة كله، فلا يجوز تقييدها بعـدد أو بقدر مـن المال إلا بمـا ثبت من طريق صحيـح، ولو ثبت ذلـك لبقـي لعثمان -رضـي الله عنه- تجهيز معظم جيش العسـرة، وعشرة آلاف دينار التي استبعدها ابن حجر وأخرجها بالتأويل الذي

لا سند له ليست بالشيء الكثير على مكارم عثمان وسخائه وبذله في الإسلام، وسعة ثرائه، قال ابن هشام: حدثني من أثق به أن عثمان أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك، فقال النبي ﷺ «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض».

وروى الترمذي، وعبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، والبيهقي عن عبد الرحمن بن خباب، قال: خطب رسول الله ﷺ فحث الناس على جيش العسرة، فقال عثمان: عليّ مئة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل النبي ﷺ مرقاة أخرى من المنبر، ثم حث، فقال عثمان: على مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل ﷺ مرقاة أخرى فحث فقال عثمان عليّ مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال عبد الرحمن بن خباب راوي الحديث: فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها كالمتعجب: «ما على عثمان بعد هذا اليوم -أو قال بعدها».

موقف نبيل في المكارم تنافس في ميدانه المتنافسون:

هذا الموقف الكريم النبيل الذي وقفه أصحاب رسول الله ﷺ في سرعة استجابتهم لتحقيق رغائبه الإيمانية، وحضه على الإنفاق السخي، والبذل الرضي في تجهيز جيش العسرة، والذي سبق إليه ذو النورين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- مما يعجز القلم عن الإحاطة بوصفه، وتوفيته حقه، مما جعل النبي ﷺ يتعجب من سماحته، وسخائه، وغامر جوده في سبيل الله وإعلاء كلمته، وقال في الثناء عليه كلماته النورانية التي جاءت في الروايات المختلفة في أسانيدها، المتنوعة في أساليبها، حتى انتهت كلها إلى موقف فريد في باب المكارم المضيئة بنور الإخلاص المصفى من كدورات تسلط الدنيا بزخارفها وغرورها على طبيعة عثمان حتى هانت

عليــه، وعرف فضل الله عليه وقدر نعمته حق قدرها فيما أفاض عليه مــن ثراء وســيع، فبذله شــكرًا لله تعالى في ســبيل مرضاته ومرضاة رســوله ﷺ، مما جعله -صلــوات الله عليه- يكثر من التعجب بيده ولســانه مبتهجًا بمظهر هذا الكرم الذي مثله في أرفع صوره، وأرقى نماذجــه، وأنقى مواطنه رجل مــن أصحابه من أحب الناس إلى قلبه، وآثرهم عنده، وأكرمهم عليه.

وليقــل في هــذه الروايــات التي تحدثــت عن مــكارم عثمان في تجهيز جيش العسرة، والتي بلغت في معناها مبلغ التواتر المعنوي المغرمون بالأســانيد ما يقولون، فليس قولهم بضائر عثمان -رضي الله عنه-، ولا هو بمنزله عن مكانه من ذروة المكارم.

مجمل الـروايـات فـي مكـارم عـثمـان تكـفي فـي إبـراز تساميه في الإنفاق على كل منفق في سبيل الله:

وحســب البحث أن يلفــت نظر الناظرين إلى كثــرة الروايات التي جــاءت كل رواية منها بنوع من المكارم جــاد بها هذا الكريم الفياض بالمــكارم الغامــرة في ســاحة الجهــاد، والأزمات مكتنفــة بالمجتمع المســلم اكتنافًا ضاقت حلقاته حتى أخذت عليه منافذ الطرق لتجهيز كتائب الإِســلام وحشــودها المتكاثفــة، وليس في يد هــذا المجتمع المسلم من ذرائع القوة التي تعينه على التحرك في مسيرته إلى هدفه، إلا ما كان من عثمان وإخوته في المكارم والبذل في سبيل الله.

وليــس من المعقــول أن تكون هذه الكثــرة الكاثرة من الروايات المتعــددة المتنوعة في أســاليبها ومعانــي متونها، وتنــوع أصناف مكارمهــا بين آلاف الدنانيــر والدراهم، ومئات الأبعــرة والأفراس، وأطنان الزاد والمؤن- مصنوعة، ولو ثبت أن منها ما هو مصنوع فلن يصــدق ذلك إلا على أقل القليل منها، ويبقى بعد ذلك في صحائف مكارم عثمان الإِسلامية ما هو فوق كل مكرمة.

أمـا الأماثـل الأكارم السُّـبَّق من خلصـاء المؤمنيـن الذين جادوا بمـا وفقهم الله إليه من البذل في سـبيل الله مـن أمثال الفاروق وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن عبادة، وطلحة بن عبيد الله (الفياض)، فأولئـك هم المفلحون الذين لم يضنوا في سـاعة العسـرة بما كان في طاقتهم، فأدخلوا على قلب رسـول الله ﷺ السرور والبهجة بما جادوا به من الكثير الطيب، وجعلوا من الجود في هذه الغزوة درس تمحيص لرسـوخ الإيمان وصفـاء اليقين، وقـوة العزيمة في نصرة دين الله، وتعزيز رسول الله ﷺ، ونشر دعوته، وتبليغ رسالته، كما جعلوا من هذه الغزوة درس تنافس في المكارم، يتسابق إلى تلقيه من الاقتداء برسول الله ﷺ أهل الوفاء وصدق الإيمان.

غزوة العسـرة كانت تمحيصًـا وامتحانًا لصدق الإيمان وإخلاص اليقين:

فهي إذن كانت غزوة عسرة عسيرة، وشدة آزمة، وأزمات شداد، فهـي أيضًا غزوة امتحان لصدق الإيمان، وإخلاص اليقين، والتفاني في فداء العقيدة ونشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة بما تتطلبه من بـذل الأرواح والأموال أبانت عن معادن النفـوس المؤمنة التي رباها النبـي ﷺ لتكـون نموذجًا للفضائل تتأسـى به أجيال الإسـلام في مستقبل حياتها، وما يقابلها في طريق مسيرتها من عقبات وشدائد، لا يخرجها منها إلا إيمان صادق، وعزائم صارمة، واستسـلام لوجه الله يجعل من الأرواح والأموال وسـائل لتحقيق مراضي الله ورسـوله وحبهما، والوقوف عند أوامرهما ونواهيهما.

أما موقف أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- الذي تصدق بجميع مالـه، وأبقـى لأهله الله ورسـوله فهو موقـف عزيز المنـال، فإنه لا يوضـع معٍ مواقف الناس في ميزان، لأنه تسـامى فسـما فلم يُلحق، فكان موقفًا صديقيًا من نسـج الطبيعة الصديقية العظمى، ولم يكن

غريبًـا علـى حياة الصديـق الإيمانية، التـي كان بها أبو بكر سـيد المؤمنيـن من أتباع الأنبياء والمرسـلين من الأولين والآخرين، وهو أحـد مواقف الصديق الأعظم الصاحـب في الغار، والرفيق في طريق الهجرة، المتزمل برداء المعية في

﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)

والمدثـر بإشـراقات «مـا ظنـك باثنيـن الله ثالثهمـا» [صحيح البخاري].

إرجـاف المنـافقيـن وبـث سـمـوم نـفـاقـهـم ليثبطوا المؤمنين عن المسير للجهاد:

ولمـا أتـم النبـي ﷺ أهبتـه للخـروج لِمَـا قصـد، أرجـف بـه المنافقون، وجعلوا يثبطون العزائم بإلقاء الأكاذيب، وقول بعضهم لبعـض لينتشـر ذلك بين صفـوف الكتائـب المجاهـدة، يبغونهم الفتنة، وفيهم سـماعون لهـم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾، ففضحهم الله، وكشـف أسـتارهم، وعرى سـوءاتهم وأنزل قوله تعالى يحكي إرجافهم وشكهم وسوء مكرهم:

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾

(التوبة: ٨١)

ثـم بكتهـم على جبنهم وخور عزائمهم فقـال لنبيه ﷺ في الرد عليهم:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾

(التوبة: ٨١)

ومعنى هذا الرد المقرع لهؤلاء المنافقين أن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: قل يـا محمد لهؤلاء الجبناء الرعاديد إن كنتم تفرقون من حر الدنيا، وهو مَشَّاء متنقل لا يدوم على حال، فما شأنكم يوم تقذفون

في نار جهنم وهي أشد حرًا بما لا يقاس مع حرها وعذابها حر نيران الدنيا مجتمعة، ولكن هؤلاء المنافقين لا يفقهون شيئًا من أمور الآخرة لعدم إيمانهم بها وبما يجري فيها من ثواب ونعيم للمؤمنين وعقاب وعذاب للكافرين والمنافقين.

كشف سوءات النفاق وإفساد تدبير المنافقين:

ثم كشف الله تعالى عن سوأة أخرى أقبح من سوءاتهم السابقة، وسوءاتهم لا تنقضي خبائثها، فجبههم مقرعًا بأنهم يعيشون بقلوب فارغة وأدمغة خاوية، فهم كالأنعام بل هم أضل، لا هدف لحياتهم إلا ملء بطونهم وتدبير المكايد لكل خير يقع أو سيقع، فإذا رأوا مكايدهم أفرخت في أوكار الفجور فرحوا ضاحكين، يسخرون مستهزئين، فقال لهم الله تعالى متوعدًا:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا ﴾ (التوبة: ٨٢)

في دنيا فجورهم، فإنهم سيبكون كثيرًا في دار حسرتهم، فهو أمر وعيد وتهديد، واستهزاء بهم وسخرية منهم.

أخبث موقف لأخبث جرثومة في النفاق:

وذكر ابن عقبة والواقدي وغيرهما أن صاحب هذه المقالة الخبيثة الجد بن قيس أحد بني سلمة، وهو القائل للنبي ﷺ في غزوة تبوك حين قال له -صلوات الله عليه-: «يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر؟ فقال: لا تفتني وائذن لي في القعود، وأعينك بمالي. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال له: «قد أذنت لك» ولم يكن له علة إلا النفاق.

وفي حديث جابر عند ابن أبي حاتم، وابن مردويه لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى تبوك قال للجد بن قيس: «ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟» فقال جد بن قيس: ائذن لي ولا تفتني، فأعرض عنه

النبي ﷺ ، وقال له : «قد أذنًا لك» فأنزل الله :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(التوبة : ٤٩)

قال ابن إسحاق في تفسيرها : أي إن كان خشي من الفتنة بنساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه ، وإن جهنم لمن ورائه ، ويزاد في توضيح تفسير ابن إسحاق ، أن هذا المنافق الخبيث إن كان كما زعم ، وهو كذوب أنه خشي من الفتنة بنساء بني الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من فجور النفاق وخبث الضلال أكبر من خشيته الفتنة بنساء بني الأصفر ، لأن النفاق أورثه الجبن ، فخلّفه عن رسول الله ﷺ ورغب بنفسه عن نفس رسول الله ﷺ ، وما ينتظره من عذاب السعير في الآخرة أكبر .

بين رسوخ الإيمان ولؤم النفاق:

قال الواقدي : فجاء ابنه عبد الله ، وكان بدريًا ، فلامه ، فقال جد ابن قيس : مالي وللخروج في الريح والحر الشديد والعسرة إلى بني الأصفر وأنا أخالفهم في منزلي فأغزوهم ، وإني لعالم بالدوائر ، وهكذا كشف الغطاء عن خبث فجوره ونفاقه ، فأغلظ له ابنه ، وقال له : لا والله ، ولكنه النفاق ، والله لينزلن فيك قرآن ، فضرب جد بن قيس بنعله وجه ابنه ، فانصرف عنه ابنه ولم يكلمه ، فما أشبه جد بن قيس في خبثه بابن أبيّ في فجوره ، وما أشبه عبد الله بن جد بن قيس في إخلاص إيمانه بعبد الله بن عبد الله بن أبي في صفاء يقينه .

وعند ابن هشام من حديث عبد الله بن حارثة ، عن أبيه ، قال : بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم

اليهـودي يثبطون الناس عن تبوك، فبعث ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويليم، ففعل، فاقتحم المنافقون جدران البيت وفروا.

موقـف البكائين وحبهم للجهاد في سـبيل الله وما نزل فيهم من القرآن ثناء عليهم:

وكان رسـول الله ﷺ قـد اسـتنفر أهـل مكـة وقبائـل العـرب فـي مضاربهـم فنفر معـه الجـم الغفير، وجـاء البـكاءون إليه ﷺ يسـتحملونه، وهم معسـرون، لا يجدون ظهرًا ولكنهم رغبوا رغبة شـديدة في الجهاد، ومرافقة المجاهدين في هذا الوجه الذي يقصد إليـه النبـي ﷺ، فلم يجد -صلـوات الله عليه- مـا يحملهم عليه، فعادوا إلى منازلهم تفيض أعينهم من الدمع حزنًا على ما سـيفوتهم من مرافقة رسـول الله ﷺ في جهاده، لأنهم لا يجـدون ما ينفقون، وهؤلاء الخلص هم الذين شـهروا بلقب البكائين، وهو من أشـرف ألقاب الإخلاص لله ولدينه وإعلاء كلمته، وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾

(التوبة: ٩١، ٩٢)

فالآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين جاءت كالتمهيد للآية الثانيـة إذ رفعت الحرج وأسـقطت التكليف عـن العجزة، فهي من باب قوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾
(البقرة: ٢٨٦)

وقوله جل شأنه:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾
(النور: ٦١)

والعجز عن الفعل يختلف باختلاف حالة الشخص العاجز، والفعل المعجوز عنه، فقد يعجز شخص عن فعل لا يعجز عنه غيره كما أوضحت ذلك آية:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾

فعجز الأعمى ليس كعجز الأعرج وعجزهما ليس كعجز المريض.

وفي حديث أنس عند أبي داود أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه في غزوة تبوك: «لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرة، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال ﷺ: «حبسهم العذر».

ولهذا شرطت الآية بديلًا عن الفعل المعجوز عنه ما لا يتناوله العجز عن الفعل المعجوز عنه، فقالت:

﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾
(التوبة: ٩١)

والنصح لله يتحقق بفعل قلبي لا يعجز عنه، وهو إخلاص الاعتقاد في وحدانية الله تعالى، وسائر ما يجب له من الكمالات اللائقة بجلال ألوهيته، مع الرغبة في محابه، والتجافي عن مساخطه، ثم النصح لرسوله ﷺ، ويتحقق ذلك بالتصديق المذعن لنبوته ورسالته، والتزام متابعته متابعةً تجعل هوى الشخص ورغائبه

تبعًا لما جاء بـه النبي ﷺ من الأمـر والنهي والطاعة في المنشـط والمكره، مـع توقيره ومحبته وتعظيمه وموالاة مـن والاه، ومعاداة من عاداه، والتمسك بسنته من غير تفريط ولا إفراط.

ثـم جاءت الآية الثانية رافعـة للحرج الخاص في موضوعها، وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته عن العجز عنه لعدم وجود وسائله من المال وغيره.

وكان هذا العجز في جماعة من خلصاء المؤمنين، جاءوا إلى النبي ﷺ يستحملونه ليكونوا في رفقته في جهاده، فلم يجدوا عنده حملانًا لهم، فعادوا وهم يبكون حزنًا على أنهم عجزوا عن السير معه.

وقـد اختلـف العلماء في هـؤلاء البكائين اختلافـا كثيرًا، فذكر بعضهم ما لم يذكره غيره، والجمهور على أنهم بنو مقرن المزنيين، وكانوا سبعة إخوة آمنوا وهاجروا، وشهدوا مع رسول الله ﷺ بعض مشـاهده، ولـم يكن فـي الصحابـة إخوة فـي عددهم شـرفوا بهذه المكرمـة، وقد ذكر الفيروزآبـادي صاحب القاموس أسـماءهم في قاموسـه، في مـادة (قرن) وهم: عبد الله، وعبـد الرحمن، وعقيل، ومعقل، والنعمان -وهو أشهرهم- وسويد، وسنان. وبنو مقرن هم الذين نزل فيهم قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٩٩)

موقف لأبي موسى وأصحابه الأشعريين يمثل صدق الإيمان وإخلاص اليقين:

وسـبب النزول لا يخصص النص القرآني، وإنما ترد فيه النماذج مرتبطة وقت النزول بالأشـخاص والحـوادث، لتكون هذه النماذج

قـدوة للأجيـال المقبلة مـن المجتمع المسـلم، ولذلك قـد يتعدد سـبب النزول، وقـال الإمام الحسـن البصري: نزلت الآيـة في أبي موسـى وأصحابـه، ويدل لقولـه: مـا رواه البخاري عن أبي موسـى الأشـعري -رضي الله عنه- قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسـأله الحملان لهم، فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسـلوني إليك لتحملهـم، فقـال: «والله لا أحملكـم علـى شـيء، ومـا عنـدي ما أحملكم عليه» ووافقته وهو غضبان ولا أشـعر. وهذا من أبي موسى كالاعتذار لأصحابه عن قسـم رسـول الله ﷺ لعدم حملانهم، ولعل غضب رسـول الله ﷺ كان بسـبب ما يبلغه من إرجاف المنافقين به وبأصحابه وتثبيطهم العزائم، وفي المجتمع المسـلم سماعون لهم من ضعفاء الإيمان وحدثاء الداخلين في الإسلام.

قال أبو موسى -رضي الله عنه-: فرجعت إلى أصحابي حزينًا من منع النبي ﷺ أن يحملنا، ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد عليّ في نفسـه، فرجعـت إلى أصحابي فأخبرتهم بالـذي قال النبي ﷺ، فلم ألبث إلا سـويعة إذ سـمعت بلالًا ينادي: أين عبد الله بن قيس، فأجبته، فقال: أجب، رسـول الله ﷺ يدعوك، فلما أتيته قال: «خذ هذيـن القرينتين وهذين القرينتين -لسـتة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سـعد- فانطلق بهـن إلى أصحابـك، فقل: إن الله، أو إن رسـول الله يحملكـم على هـؤلاء فاركبوهن» فانطلقت إليهـم بهن، فقلت: إن النبـي ﷺ يحملكم على هؤلاء الأبعرة، ولكني والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ، لا تظنوا أني أحدثكم شـيئًا لم يقله رسول الله ﷺ، فقالوا: إنك عندنا لمصدق، ولنفعلـن ما أحببت، فانطلق أبو موسـى بنفر منهـم حتى أتوا الذين

سمعوا قول رسول الله ﷺ ومنعه إياهم، ثم إعطاءهم بعدُ، فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى.

وهذا الصنيع من أبي موسى -رضي الله عنه- في اعتذاره لأصحابه إنما أراد به -فيما يظهر- حمايتهم أن يقذف الشيطان في قلوبهم سوأة ظن به، لأن الزمن الذي انقضى بين منع النبي ﷺ من حملانهم وقسمه ألا يحملهم على شيء، وبين إعطائهم الحملان كان قليلًا جدًا، عبر عنه أبو موسى بلفظ (سويعة) أي لحظات من الزمن، فخشي أبو موسى أن يكون قرب الزمن ذريعة لشيء من وسوسة الشيطان، فأراد أن تبقى له قلوبهم على صفائها وإخلاصها.

قصة علبة بن زيد أحد البكائين ومناجاته ربه وتصدقه على كل مسلم بكل مظلمة أصابه بها:

وذكر بعضهم من البكائين علبة بن زيد بن عمرو بن عوف الأنصاري الذي لم يدركه شيء من حملان النبي ﷺ لمن حملهم، ولكنه استأنس بإيمانه وقد أرخى الليل سدوله، وستر الحياة بسكونه، فقام يصلي ويبكي ويناجي الله ربه وهو أعلم، ويقول في مناجاته: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها، في مال أو جسد، أو عرض. ثم أصبح علبة مع الناس، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: أين المتصدق بهذه الليلة؟ فلم يقم أحد، ثم قال ﷺ: «أين المتصدق؟» فلم يقم أحد، ثم قال -صلوات الله عليه-: «أين المتصدق؟ فليقم»، فقام علبة بن زيد إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمره وحاله، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر، فو الذي نفس محمد بيده، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة»[شعب الإيمان للبيهقي].

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص، وحب الجهاد لنصـرة دين الله وبث دعوته في الآفـاق، وفيها من لطف الله بضعفاء المؤمنيـن الذين لا يقفون في حياتهم مواقف سـلبية يتلقطون فيها الأماني الكواذب، ولكنهم يعيشـون في حياتهم عيشة عملية، فهم إذا عجـزوا عن متابعة الحركة الإيجابية التي يدعوهم إليها الموقف لم ييأسـوا، ولـم يبلسـوا، ووجهوا أنفسـهم إلى هذا الديـن القيم من مناح حركية يسـتطيعونها، وهذا لون من أشـرف مناهج رسـالة الإسـلام، عظمه الله تعالى على لسـان رسـوله ﷺ، فكان معلمًا من معالم الهداية التي يستهدفها الإسلام في رسالته، وهو معلم يستطيع كل مسلم أن يحققه في حياته.

مواقف من في قلوبهم مرض الذين كذبوا الله ورسوله وإخوانهم المعذرين من الأعراب:

أما الذين في قلوبهم مرض، فإنهم في مثل هذه المواقف يلوذون بكـواذب المعاذيـر، ولا يجـدون في أنفسـهم من دوافـع الخير ما يسـعفهم في أزماتهم الإيمانية، وإنما يجدون فـي لدد النفاق طرقًا للمعاذيـر، ومذاهـب للأباطيل الكـواذب، ولهذا لمـا رأى مهزوزو الإيمـان الجـد في التأهب لمسـيرة الجهـاد، ورأوا صـوارم العزائم تشـرق في وجـوه صادقي الإيمـان من خلصـاء المؤمنيـن أخذتهم الرهبـة، واكتنفهـم الرعـب والفـزع، واسـتحوذ عليهـم الذعـر، واسـتولى عليهم الجبن والخور، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ مصفرة وجوههم يابسة جلودهم، كأنهم الأشباح خارجة من قبورها ينتحلون المعاذير ويفترون الأكاذيب ليقعدوا مع الخوالف، متعللين بالجهد وكثرة العيال، وما بهم من ذلك من شـيء، واستأذنوا رسول الله ﷺ

في التخلف عنه ورغبوا بأنفسهم عن نفسه، فأذن لهم، وجرى في شوطهم جرآء المنافقين من ذوي الصفاقة، غلاظ الأكباد، بجاح العيون، الذين نزع الله منهم كل حياء، فتخلفوا بغير عذر جراءة على الله ورسوله، وقد ذكر الله تعالى الطائفتين ناعيًا عليهم سوء فعلهم وقبح موقفهم، لكنه -جل شأنه- أجمل ذكر المعذرين، وفصل بعض الشيء موقف المنافقين الذين لم يعتذروا استهتارًا منهم بالموقف، فوصفهم الله بالكذب على الله وعلى رسوله، وذكر ما أعده لهم من أليم العذاب، فقال في الطائفتين:

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٩٠)

ولما تمت الأهبة، وأخذت كتائب المجاهدين مواقفها تحت ألويتها وراياتها استعدادًا للمسير أقام رسول الله ﷺ، عليًا -رضي الله عنه- خليفة على عياله وأهله، وعلى سائر من بقي بالمدينة من ذوي الصدق في أعذارهم، ففي مرسل عطاء بن أبي رباح عند الحاكم في الإكليل أن النبي ﷺ قال لعلي: «يا علي اخلفني في أهلي واضربْ وعِظْ» ثم دعا رسول الله ﷺ نساءه وقال لهن: «اسمعن لعليَّ وأطعن».

وفي الصحيحين، والنسائي، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف عليًا -رضي الله عنه-، فقال علي: أتخلفني في النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي؟» وزاد الإمام أحمد فقال عليّ: رضيت، ثم رضيت، ثم رضيت.

وكان المنافقــون قــد أرجفــوا بعليّ -رضــي الله عنــه- ، فقالوا : مــا خلفه إلا اســتثقالًا لــه ، وتخففًا منــه ، فأخذ عليّ ســلاحه ثم أتى رســول الله ﷺ وهو نازل بكتائبه وحشــوده بالجرف على مشــارف المدينة فقال : يا نبي الله ﷺ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك اســتثقلتني ، وتخففــت مني ؟ فقال لــه النبي ﷺ : «كذبــوا ، ولكن خلفتــك لما تركــت ورائي ، فارجع في أهلي وأهلــك ، أفلا ترضى يا علــي أن تكون منــي بمنزلة هارون من موســى إلا أنه لا نبي بعدي» ، فرجع علــيّ إلى المدينة ومضى رســول الله ﷺ في مســيرته ميممًا هدفه من غزوته حتى بلغ تبوك .

وإرجــاف المنافقيــن بعلــيّ -رضــي الله عنــه- فــي تخليــف رسول الله ﷺ له في أهله ، وهو ميمم سفرًا بعيدًا ، قد يطول المقام فيــه أو يقصــر ، وأهل بيت رســول الله ﷺ ، ومن بقي من مســلمة المدينة الذين حبســهم العذر عن الســير معه ﷺ في أشد الحاجة إلــى من يرعــى مصالحهم ويقوم على حمايتهــم ويحفظ ضيعتهم -إنما هو نزيز صديد من حقد النفاق والمنافقين ، ورشح من بثور الغيــظ الممض الذي نغل قلوبهــم ، لأن عليًا -رضي الله عنه- كان شــجًا فــي حلاقيم كل كفور عنيد ، وغصة تكتــم أنفاس كل منافق كنود ، تربى منذ طفولته بين أحضان عطف رسول الله ﷺ ، فأحبه وآثــره بمنزلته منه ، وأرضعه المكارم مــن ثديي أدب نبوته ، وفوزه بأكــرم الصهر منه ، وجعل الله منــه خلود ذرية أهل البيت ، فكانت لرســول الله ﷺ لســان صدق فــي الآخريــن ، فمن أولى مــن عليّ صاحــب البرد الأخضــر في ليلة الهجرة أن يخلف رســول الله ﷺ فــي أهلــه ؟ ولكن غباء النفاق ، ولــؤم نحيزة المنافقيــن أبيا إلا أن

يكونـا أحـد طرفـي حبل الفجـور يتجاذبانـه مع أكـذب خلق الله الروافض، فهؤلاء كذبوا على الله ورسوله، وقالوا منكرًا من القول وزورًا، وأولئـك تقولوا إفكًا من الأباطيل والفرى، ولكن الله تعالى هو الفعال لما يشـاء، يضل من يشـاء، ويدخل في مساخطه بغباء الفجور من يشاء، لا يسأل عما يفعل.

تخلـف بعـض صادقـي الإيمـان عـن رسـول الله ﷺ ليكونوا أسوة في عدم الاعتماد على غير الله تعالى:

وقد تخلف عن المسـير مع رسول الله ﷺ نفر قليل من خُلّص الصحابـة -رضـي الله عنهـم- بغيـر عـذر، ولم يعـرف عنهم قط غميـزة في دينهم وإخلاصهم وحبهم لله ورسـوله -لحكمة أرادها الله تعالـى، ليكـون في هذا التخلـف، وما جاء فـي قصته من عبر وعظـات، ودروس فـي تربيـة السـلوك الإيماني، أسـوةً للأجيال المقبلة مما يوجه المجتمع المسلم أفرادًا وجماعات إلى ما ينبغي أن يكـون عليه هذا المجتمع فـي جميع أحواله ومواقفه على صلة وثيقة بربه، وأن يكون دائمًا على يقظة حذرة من نزعات الشيطان حتـى لا يخدعه عمـا تجري به تصاريـف الأقدار فـي غيبها، وأن يكون قلبـه معلقًا بأجنحة الخوف من مكنون الغيب، والرجاء في لطف الله ورحمته.

قصـة الثلاثة الذين خلفـوا وما فيها مـن عبر وعظات وتلطف:

وقـد ذكـر الله تعالى في كتابـه الكريم قصة الثلاثـة الفضلاء من أصحاب رسـول الله ﷺ الذين تخلفـوا عنه بغير عذر، ثم خلفوا عن التوبة عليهم، فعاشـوا في شـدائد الأزمات خمسـين يومًا مهاجَرين

لا يكلِّمون ولا يكلَّمون ولا يعاملون: وهم كعب بن مالك السلمي الأنصاري، ومرارة بن الربيع العمري الأنصاري، وهلال بن أمية الواقفي الأنصاري -في أسلوب تصويري مبدع الإعجاز، رائع البيان، فقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨)

وهذا التصوير المجسد للموقف، الناطق بإعجازه، وروعة إيجازه يحمل في طياته صورة مجسدة للمعنى الذي تقصد إليه الآية الكريمة، فقوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾

ينادي بتخصيصهم العددي، وإفرادهم بالذكر مع إبهام أشخاصهم معلنًا ما لهم من منزلة إيمانية رفيعة، مشعرة بالحفاوة بهم دون أن تذكر خصائصهم المعينة لهم كما تعين الأسماء مسمياتها، بالعتب المتلطف، كأنه قيل لهم: أنتم في سمو منزلتكم الإيمانية لم تكونوا ممن ينبغي أن يصدر منه ما صدر منكم من التخلف عن أعظم الشرف، وهكذا جمع التعبير المؤلف من اسم وحرف، ثناءً رمزيًا، وعتبًا إشاريًا، والثناء والعتب طرفان بينهما حب ندي، يأخذ من كل طرف حظه.

وقوله جل شأنه:

﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾

وصف مشعر لجميع أفراد المجتمع المسلم أن الأعزة لا يعاملون في أدب السلوك معاملة الخادعين المتكذبين، الذين يتسارع إلى

إزاحتهم عن المواجهــة بقبول ظواهرهم، وتركهم بذنوبهم إلى يوم يوعدون.

ولكن الأعزة يوقف بهم موقف ينضح عنهم رشاش ما لحقهم من آثــار الهفوات، حتى إذا وردوا على ســاحة العتاب وردوها، يقدمهم نور الرجاء مظللين بظل

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

وقد جاء في مرسل الحسن بيان سبب تخلف مرارة بن الربيع عن رســول الله ﷺ: أنه كان له حائط -بســتان- قد زها حين الاســتنفار لتبوك، وكأنه أعجبه، فقال في نفســه: قد غزوت قبلها، فلو أقمت عامي هذا؟ ثم تذكر ذنبه فأســرع الأوبة منادمًا للتوبة، وقال: اللهم إني أشهدك أني قد تصدقت به -أي بحائطه- في سبيلك.

وفــي هذا الصنيــع الأواب معالم مــن معالم المنهــج التربوي في رســالة الإِســلام، فقد عرف مرارة بن الربيع -رضي الله عنه- أنه فتن فــي إيمانه بإِعجابه بحائطه الذي زهت ثماره وأينعت، وقد غفل عما قــد يعتري حائطه مــن الجوائح المبيدة أو ما قد يلــم به من الغصص فيحرمــه المتعة بما أعجــب به، وقد حرم مرافقة رســول الله ﷺ في مســيره للجهاد في ســبيل الله وإعلاء كلمته، وما في ذلك من خير لا يبيــد ولا ينقطــع، متعللًا بأنه قد غزا قبل هــذه الغزوة، فلما تنبه إلى مــا وقع منــه، وتيقظ إيمانه، وتمثل له ذنبه، اســتعظمه فأســرع إلى الإِنابــة تائبًــا من ذنبه توبة نســجها الإِخلاص والصــدق، فانخلع عن هذا الحائط وثمره الزاهي، فوضع بعمله هذا دعامة من دعائم التربية الســلوكية للذين هفــوا وأرادوا أن يتطهروا من هفواتهم، فكان ذلك

معلمًا تربويًا من معالم منهج الرسالة التي رباهم عليها رسول الله ﷺ حتى تكون تلك المعالم معتصمهم عند النوازل والافتتان بالدنيا وزخارفها، فكل ما كان سببًا في مواقعة الذنب، وضعفت النفس أمام إغرائه يجب التخلص منه، وإزاحته عن طريق السالك في مسيرة الرسالة الخالدة إقامة لمنائر منهاجها مضيئة هادية.

تَهَدِّي الصحابة للخروج من المآزق بما يمحو آثارها:

ومن دقة فهم الصحابة لمناهج رسالة الإسلام أنهم يخرجون من مواقفة الهفوات إلى الدخول في عرصات الطاعات بنفس ما كان سببًا للهفوات، فهذا الصحابي الأواب مرارة بن الربيع -رضي الله عنه- حين آب إلى الله تعالى تائبًا من ذنبه جعل من توبته أن يتصدق بهذا المال الذي أعجب به، فكان سبب هفوته، فجمع الله له بما وفقه الحسنيين: التوبة من الهفوة، والتصدق بهذا المال الذي أعجبه فحبسه عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

وفي مرسل الحسن أيضًا ذكر سبب تخلف هلال بن أمية الواقفي الأنصاري الذي حكاه عن نفسه فقال: إنه كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا، فحدث نفسه بأنه لو أقام هذا العام عندهم متخلفًا عن مرافقة رسول الله ﷺ في مسيرة جهاده، ولكنه سرعان ما تيقظ قلبه فأدرك أنه هفا بذنب، فآب إلى التوبة، وانخلع عما كان فيه راغبًا من الإقامة عند أهله هذا العام، وأناب إلى الله، وقال: اللهم لك عليّ أن لا أرجع إلى أهل أو مال، فغسل بتوبته حوبة هفوته.

موقف كعب بن مالك نموذج حي للإيمان الصادق:

أما كعب بن مالك -رضي الله عنه-، فقد ذكر في حديثه حاله وموقفه في تفصيل طويل مسهب، جعل من هذا الحديث كتابًا

يحــوي بين دفتيــه الكثير من معالــم منهج الرســالة الخالدة، وقد آثرنا تســجيله فــي بحثنا على طوله واســتفاضة حوادثه، لا ليكون قصــة تثير الإعجاب والعجب، ولكن ليكــون منارة يهتدي بنورها التائبون إلى منازل القبول، وليظهر أن منهج الإســلام في ســلوكه الإيماني لم يكن مجموعة من الأمشاج المثالية السلبية، وإنما هي آيات بينات من واقع الحياة تجعل من المســلم أينما كان من أرض الله قوة روحية بها كانت الأمة الإســلامية خيــر أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وهذان المنهجان هما جماع سعادة الأمة ومناط عزها.

موقف كعب بن مالك في تخلفه
حتى تاب الله عليه كما يصوره بأسلوبه

أخرج الشيخان حديث الثلاثة الذين خلفوا برواية كعب بن مالك وأسلوبه من طريق الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله، حفيد كعب بن مالك، عن أبيه عبد الله بن كعب بن مالك، وكان عبد الله قائد أبيه من بين بنيه، حين عمي كعب، قال عبد الله: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك فقال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب رسول الله ﷺ أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا وعدوًا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ -أي ديوان- فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال،

فأنـا إليها أصعر -أميل- فتجهز إليها رسـول الله ﷺ والمسـلمون معـه، وطفقـت أغدو لكـي أتجهز معهـم، فأرجع ولم أقض شـيئًا، فأقـول في نفسـي: أنـا قادر عليـه إذا أردته، فلم يـزل ذلك يتمادى بي حتى أسـرعوا وتفـارط الغزو، فهممت أن أرتحـل فأدركهم، فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر لي ذلك، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسـول الله ﷺ يحزنني أن لا أرى لي أسـوة إلا رجلًا مغموصًا عليـه في النفـاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفـاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُـرْدَاهُ والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ.

ثـم قال كعب بـن مالك: فلما بلغني أن رسـول الله ﷺ قد توجه قافـلًا من تبوك حضرني همي، فطفقت أتذكـر الكذب، وأقول: بم أخرج من سـخطه غدًا؟ وأسـتعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلمـا قيل لـي: إن رسـول الله ﷺ قد أظـل قادمًا، زاح عنـي الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشـيء أبـدًا، فأجمعت صدقه، وصبّح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس.

فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واسـتغفر لهم، ووكل سـرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سـلَّمت تبسم تبسُّـم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلسـت بين يديه فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك» فقلت: بلى، إني والله يا رسـول الله، لو جلسـت عند غيرك من أهل

الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، والله لقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه عليّ إني لأرجو فيه عفو الله، (وفي رواية مسلم عقبى الله). لا، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المتخلفون؟ فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله مازالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت: من هما قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكرا رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة -هذا من رواية الواقدي، ذهب فيها مذهب أبي بكر الأثرم، والجمهور على أنهما لم يشهداها، كما لم يشهدها كعب بن مالك- فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

موقف إيماني بين أبي قتادة وكعب بن مالك:

فأما صاحباي فقد استكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه

وهـو في مجلسـه بعد الصلاة، فأقول في نفسـي: هل حرك شـفتيه بـرد السـلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسـارقه النظـر، فإذا أقبلت علـى صلاتي نظر إلـي وإذا التفت نحوه أعرض عنـي، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسـلمين مشـيت حتى تسـورت جدار حائط أبـي قتادة، وهـو ابن عمي وأحـب الناس إلي فسـلمت عليه، فوالله ما رد علي السـلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشـدك بالله؟ هل تعلمن أني أحب الله ورسـوله؟ فسـكت، فعدت فناشـدته فسـكت فعدت فناشـدته، فقال: الله ورسـوله أعلم، ففاضت عينـاي وتوليت حتى تسـورت الجدار، فبينا أنا أمشـي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشـام ممن قـدم بالطعام يبيعـه بالمدينة يقـول: من يدل على كعـب بـن مالك، فطفق الناس يشـيرون له إلي حتـى جاءني، فدفع إلـي كتابا من ملك غسـان وكنت كاتبًا، فقرأته فـإذا فيه: أما بعد، فإنـه قد بلغنـا أن صاحبك قد جفـاك، ولم يجعلك الله بـدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسـك، فقلت حيـن قرأتها وهذه أيضا من البلاء؟ فتيممت بها التنور فسجرته بها.

أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم على رأس أربعين ليلة من ابتداء المحنة وموقف امرأة هلال:

حتـى إذا مضت أربعـون من الخمسـين، واسـتلبث الوحي، إذا رسـول رسـول الله ﷺ يأتيني فقـال: «إن رسـول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك» فقلت: «أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنها» فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلـك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. فجاءت امرأة هـلال بن أمية رسـول الله ﷺ فقالت له: يا رسـول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن

لا يقربنــك» فقالــت : إنه والله ما بــه حركة إلى شــيء، ووالله ما زال يبكــي منذ كان من أمره ما كان إلــى يومه هذا، فقال بعض أهلي : لو اســتأذنت رســول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت : لا أســتأذن فيها رســول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمســين ليلة على ظهر بيت مــن بيوتنا، فبينا أنا جالــس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت عليّ نفســي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج.

وذكر ابن حجر في الفتح : أنه وقع في رواية إسـحاق بن راشــد، وفــي رواية معمر : فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورســول الله ﷺ عند أم ســلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معتنية بأمري، فقال ﷺ، «يا أم سلمة، تيب على كعب» قالــت : أفلا أرســل إليــه فأبشــره؟ قال -صلــوات الله عليــه- : «إذا يحطمكم الناس، فيمنعوكم النوم سائر الليلة» حتى إذا صلى الفجر آذن بتوبة الله علينا.

وآذن رســول الله ﷺ بتوبــة الله علينــا حين صلي صــلاة الفجر، فذهب الناس يبشــروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجــل -قيل إنه الزبير بن العوام كما رواه الواقدي- فرسًــا، وســعى ســاع من أســلم، فأوفــى على الجبــل، وكان الصوت أســرع إليّ من الفرس، فلما جاءني الذي ســمعت صوته يبشــرني نزعت له ثوبيّ،

فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

وفي الفتح أن الذي سعى فأوفى على الجبل هو حمزة بن عمرو الأسلمي، وقد نقل الزرقاني عن ابن عائذ أن اللذين سعيا أبو بكر وعمر، وعند الواقدي أن الذي أوفى على الجبل أبو بكر الصديق، فصاح: قد تاب الله على كعب، والذي في الصحيح من أن الساعي إلى الجبل أسلمي أصح، وقد جزم ابن حجر بأنه هو حمزة بن عمرو، وحكى ابن حجر عن كعب بن مالك أنه قال: وكان الذي بشرني فنزعت له ثوبيّ حمزة بن عمرو الأسلمي، وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد، قال سعيد: وخرجت إلى هلال ابن أمية الواقفي فبشرته، فسجد، فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه، لما كان فيه من الجهد، لأنه امتنع من الطعام حتى كان يواصل الأيام صائما لا يفتر عن البكاء.

فرحُ المسلمين بالتوبة على إخوتهم الثلاثة واستقبال الناس كعبًا بالتهنئة:

قال كعب في حديثه: وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنؤني بالتوبة، يقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال في الفتح: وسبب ذلك أن النبي ﷺ كان آخى بينه وبين طلحة لما آخى بين المهاجرين والأنصار، قال ابن حجر: والذي ذكره أصحاب المغازي أن كعبًا كان أخا الزبير بن العوام، لكن كان الزبير أخا طلحة في أخوة المهاجرين، فهو أخو أخيه وهذا كلام ضعيف، لأن ما كان بين

المهاجريـن من التآخـي كان من قبيل أخوة الإيمـان التي عقدها الله تعالى بين عامة المؤمنين بقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

(الحجرات: ١٠)

أما المؤاخاة التكافلية الاجتماعية فهي التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فجعل لـكل مهاجري أخًا من الأنصار وكتب ﷺ بذلـك كتابًا، وقد فسـرنا الكلام عـن المؤاخاة ومـا قيل عنها تفصيـلًا جمع بين رواياتها وآراء العلماء فيها، ورجحنا أن المؤاخاة التي عقدها النبي ﷺ في مسجده الشريف، وفي بيت أنس بن مالك -رضي الله عنه- هي المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار.

تهنئة رسول الله ﷺ كعبًا بتوبة الله عليه وتقبيل كعب يده وركبتيه:

قال كعب بن مالك في حديثه: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» فقلت: أمن عندك يا رسـول الله، أم من عند الله؟ قال «لا، بل من عند الله» وكان رسـول الله ﷺ إذا سُـرَّ اسـتنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه.

وعند ابن مردويه وأبي الشيخ عن كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده وركبتيه، وكسوت المبشر ثوبين.

فلما جلسـت بين يديه قلت: يا رسـول الله، إن من توبة الله علي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسـوله، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت: إني أمسك سهمي الـذي بخيبـر، وقلت: يا رسـول الله، إن الله إنمـا أنجاني بالصدق، وإن مـن توبتـي ألا أحـدث إلا صدقًـا مـا بقيـت، فـوالله مـا علمت أحـدًا من المسـلمين بلاه الله فـي صدق الحديث منـذ ذكرت ذلك

لرسـول الله ﷺ إلـى يومـي هذا أحسـن ممـا بلاني الله بـه، والله ما تعمـدت كذبة منذ قلت ذلك لرسـول الله ﷺ إلـى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، فأنزل الله -عز وجل-:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(التوبة: ١١٧ - ١١٩)

ثـم قال كعب بن مالك في حديثه: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ ألا أكـون كذبتـه، فأهلك كما هلك الذين كذبـوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تعالى:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(التوبة: ٩٥، ٩٦)

قـال كعب: كنـا خلفنا أيهـا الثلاثة عـن أمر أولئـك الذين قبل منهم رسـول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واسـتغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا تخلُّفَنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

وقد نظم الله -جل شأنه- في سلك هؤلاء الثلاثة الأصفياء الأوابين أول ما بدأت المحنة أبا خيثمة ثم تداركه الله بلطفه، فأيقظ الإيمان في قلبه، فثاب إليه رشده، وعزم فأمضى حتى لحق بالنبي ﷺ بعد وصوله إلى تبوك، فكان في قصته وحديثه مَعْلم من معالم رسالة هذا الدين القيم بدأ برشح من غفوة الإيمان، ثم انتهى بصحوة عارمة هزت كيانه، ومضى قدما إلى تتبع خطوات رسول الله ﷺ حتى لقيه في تبوك، ذلكم أبو خيثمة، قيل إنه صاحب التصدق بصاع التمر الذي لمزه المنافقون، فتولى الله تعالى الدفاع عنه وأنزل قصته قرآنا يتلى تعبدًا، ويتحدى إعجازًا، ويسخر من طغمة المنافقين الذين سخروا منه ومن صدقته، فقال -جل شأنه-:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧٩)

وقول ابن جرير الطبري فيما أخرجه عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن الذي تصدق بصاع التمر فلمزه المنافقون أبو خيثمة الأنصاري، يتعارض كل التعارض مع ما جاء في قصة تخلف أبي خيثمة عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم نهضٍ للحاق به حتى أدركه بعد ما نزل بتبوك، من أنه كان يملك حائطا، وتحته امرأتان، ولكل واحدة منهما عريش رشته بالماء، وهيأت طعامًا لزوجها أبي خيثمة، فلما جاء إليهما وقف بالباب، ورأى ما صنعت

كل منهما بعريشـها، فحلف ألا يدخل عريـش واحدة، منهما حتى يلحق برسـول الله ﷺ، وقد أخذ القرطبي برواية الطبري، فقال عن أبي خيثمة: وهو الذي تصدق بصاع التمر حتى لمزه المنافقون، ثم ناقض القرطبي نفسه بما ذكره في تفسير قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ ﴾

من أن المتصدق بصاع التمر هو أبو عقيل، واسمه الحبحاب.

ووجه تعارض رواية الطبري مع ما جاء في قصة تخلف أبي خيثمة أن الذي جاء في القصة مشعر بأن أبا خيثمة كان من أهل الاستطاعة بالتصـدق بما هو أكثر من صـاع التمر، وأن صاع التمر أقل جدًا من جهده الذي يسـتطيع، فجعله هو الملموز من المنافقين لأنه تصدق بصاع التمر وهو جهده، يتنافى مع حاله المذكور في قصة تخلفه.

ترجيح تعدد قصة المتصدق بصاع التمر الملموز من المنافقين:

والظاهـر أن قصة المتصـدق بالقليل الذي يسـتطيعه جهده إلى جانب المتصدق بالكثيـر الغامر مثل عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنـه- الذي لمزه المنافقـون بالرياء قد تعـددت، لأن الروايات تعـددت واختلف الاشـخاص باختـلاف الروايات، فبعضهـا عد أبا خيثمة، وبعضها ذكر أبا نهيك، وبعضها سمى الحبحاب، وهو أبو عقيل، وبعضها ذكر سهل بن رافع، كما في رواية البغوي في معجمه وابن قانع، وابن مردويه عن سـعيد بن عثمان البلوي عن جدته ليلى بنـت عـدي، أن أمها عميرة بنت سـهل بن رافع صاحـب الصاعين الـذي لمزه المنافقون، أخبرتها أنه خرج بصاع من تمر، وترك مثله عند ابنته عميرة، حتى أتى النبي ﷺ بصاع فصبه.

رواية تخلف أبي خيثمة عند الطبراني كما يرويها عن نفسه:

وحديث تخلف أبي خيثمة أخرجه الطبراني من رواية أبي خيثمة نفسه قال: تخلفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطًا، فرأيت عريشًا قد رش بالماء، ورأيت زوجتي، فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحر، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات، وخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس قال ﷺ: «كن أبا خيثمة» فجئت فدعا لي، وهذه رواية موجزة مقتضبة اختصر الكثير منها.

وقد روى القصة أبو جعفر الطبري في تاريخه، فساقها سياقًا مفصلًا انسجمت فيه حوادثها، واشتملت على زيادات مفيدة رأينا أن نسوقها بسياقه ونسجلها بروايته.

قال أبو جعفر: ثم إن أبا خيثمة أخا بني سالم رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حار، فرأى امرأتين له في عريشين لهما في حائط، قد رشت كل منهما عريشها وبردت له فيه الماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريشين، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله في الضح والريح، وأبو خيثمة في ظلال باردة، وماء بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنصف!! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لي زادًا، ففعلتا، ثم قام إلى ناضحه فارتحله، وخرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

وتقدم أبو خيثمة في سيره حتى دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: يا رسول الله، هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ:

«كن أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أبو خيثمة أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «أولى يا أبا خيثمة»، ثم أخبر أبو خيثمة رسول الله ﷺ خبره، فقال ﷺ خيرًا، ودعا له بخير.

عبر واعظة في آيات تربية متلطفة

المتأمل في قصة هؤلاء الذين تخلفوا عن مسيرة الجهاد مع رسول الله ﷺ في آخر غزوة غزاها في حياته -كما رواها كعب بن مالك في حديثه، مع صدق إيمانهم، وإخلاص يقينهم، دون أن يكون لهم عذر في تخلفهم، حتى خُلِّفوا عن التوبة، وأرجئوا حتى قضى الله في أمرهم، وتاب عليهم- يرى فيها من العبر الواعظة، وآيات التربية المتلطفة التي حواها منهج الرسالة السلوكي في إقامة بناء المجتمع المسلم على دعائم التمحيص بالمحن، حتى يكون مجتمعا قوي التماسك في عناصره الداخلية النفسية، لا تهزه أعاصير الأحداث مهما عتت، ويكون مجتمعًا سليم التكوين في عناصره الفردية الجماعية، يمثل الإنسانية في واقعها الوجودي، فيهفو ويعلم أنه قد هفا، وينهض من هفوته متطهرًا، ويعلم أن الهفوات لا تقعد به عن الوثوب إلى آفاق الحياة، وذلك سبيل الإنسانية في طبيعتها التي تحيا بها حياة عملية تدور بين النقص والكمال البشري.

صدق إيمان المتخلفين جعلها نماذج لتربية المجتمع المسلم:

كذلك كان هؤلاء المخلفون، إيمان لا يتزعزع، ويقين لا يتضعضع، وغرائز إنسانية حية لا تضعف عن الصراع والتجاذب، والشد والدفع، تتربص بالفرص وراء جهام الغفوات القلبية، وستائر

الغفــلات العقلية، لتثــب بصاحبها بعيدًا عن منائــر الإيمان ومعالم اليقين.

ولكنها ســرعان ما يعشــوها نور الحق فيقهرها، فإذا هي ناكصة على أعقابها، وإذا شمس الإيمان مشرقة بأضوائها في قلوب صادقي الإيمان، كأنما أشعتها نسج من خيوط أنوار التوبة الضارعة بالتذلل بيــن يــدي الله الــرءوف الرحيم الــودود، فتفتــح لها أبــواب الرضا والقبول، ويجعل الله -جل شأنه- من ذلك كله درسا تربويا سلوكيا تتوارثه الأجيال المقبلة من سلائلِ المجتمع المسلم على مر الأزمنة واختلاف البيئات والأوطان، توثيقًا للوحدة التربوية المؤسسة على الإيمان بين هذه الأجيال، وهي تمر مع الحياة.

فهــؤلاء الثلاثــة الأصفيــاء الذين ســمت بهــم هفواتهــم إلى ذرا التمحيص والتطهر كانوا نماذج إنســانية لتربية المجتمع المســلم تربيــة منهجية ســلوكية تعتمــد على تطبيــق معالم منهج الرســالة تطبيقا عمليًا على الأفراد والجماعات.

خصائص غـزوة تبـوك جعلت مسألة التخلف عنها عظيمة:

فإذا نادى منادي رســول الله ﷺ -وهو القائد الأعظم الذي تجب طاعته رســولًا وقائدًا بالنفير إلى الجهاد- فقد وجب على كل مسلم بلغه النداء أن ينفر مستجيبًا لنداء الرسالة والقيادة العظمى.

وقد كان لهذه الغزوة خصائصها التي تميزها عن ســائر الغزوات مما يجعل المساءلة عن التخلف عنها عظيمة بالقياس إلى المساءلة عن التخلف في غيرها.

وأول تلك الخصائص وأهمها أن غزوة تبوك كانت خاتمة غزوات رسول الله ﷺ التي قاد فيها كتائب الجهاد وحشودها بنفسه، لأنها

كانت غـزوة الإعلان العملي لعموم الرسـالة، وأنهـا كانت تطبيقًا عمليًا لوضع النص القرآني في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ (التوبة: ١٢٣)

وهـو من آخر ما نزل من القرآن موضـع التنفيذ، والنداء في الآية عام شـامل لجميع المؤمنيـن، وهؤلاء كانوا هم المجتمع المسـلم المخاطـب بالآية، وهـم العرب قاطبة الذين ينطبـق عليهم الوصف الذي نودوا به، ولا عبرة بالقلة الشاردة عن الإيمان.

وثاني خصائص هذه الغزوة أنها كانت غزوة عسـرة في كل شيء حتى سـماها الله تعالى ساعة العسرة، في ثنائه على الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ، فاتبعوه في سيره لهذه الغزوة إيثارًا للجهاد في سـبيل الله على الراحة والاسترخاء المترهل الكسول، والتثاؤب في ظلال الثمار الزاهية، فقال تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَـٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ (التوبة: ١١٧)

وثالـث خصائص هذه الغزوة أن النبي ﷺ خالف عادته الكريمة التـي كان يسـير عليها في غزواتـه من التورية والكنايـة، فقد أعلن عنها وأخبر بها الناس ليقطع عذر كل من بلغه نداء النفير، مستهدفًا من هذا الإعلان أن يشـرك في هذه الغـزوة أكبر عدد من أصحابه في جهادهـا معه، الذي يضع به اللبنـة الأولى في عموم الدعوة إلى الله، التي جاءت بها رسـالته الخالدة، وهـذه اللبنة بدء مرحلة جديدة في تبليـغ الرسـالة، تحتاج إلى تأهب قوي لما كان في السـير إليها من عسر وعسرة، وشدة أزمة.

ورابـع خصائص هذه الغزوة أنها كانت امتحانًا قاسـيًا في البذل

والإنفاق والتصدق لتجهيز جيشها في كثافة وكثرة عدده، مما لم يعرف مثله في غزوة من الغزوات.

وقد أنفق فيها المكثرون والمقلون ابتغاء وجه الله ورضوانه، فالحبحاب أبو عقيل الذي بات لا يملك إلا صاعين من تمر، أتى بأحدهما إلى رسول الله ﷺ وترك الآخر لقوت عياله، نال من فضل الله وتشريفه، أن سلكه الله في عقد الأكرمين: الصديق أبي بكر، والفاروق عمر، وذي النورين عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وعاصم بن عدي الأنصاري، الذين أنفقوا الألوف والمئين، واستقلوا بتجهيز جيش العسرة على ضخامته، فنالوا من رضاء الله ورسوله ما سجله لهم تاريخ الجهاد في الإسلام في صحائف أمجاده.

وخامس خصائص هذه الغزوة أنها استوعبت أكبر وأعظم جيش قاده رسول الله ﷺ في حياته المباركة، ليري الكافرين خارج نطاق الجزيرة العربية قوة الإسلام والمسلمين، وليجرِّئ المسلمين على أعدائهم الذين كانوا يسترهبونهم، قبل أن يوحد الإسلام كلمة العرب، ويتخذ منهم قادة يحملون ألوية الجهاد ورايات الدعوة إلى الله، طوافين في الأرض، يبلغون رسالة الإسلام، وينشرون دعوة الهدى والرشاد، ويحررون البلاد والعباد، ويفتحون مغاليق القلوب والعقول والأفكار.

وسادس خصائص هذه الغزوة أنها فضحت المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فكشفت عن سوءاتهم، وجللتهم بالخزي والخذلان، وألبستهم جلابيب العار والشنار، وأظهرت النفاق على حقيقته من الضعة والإسفاف، وأبانت عن حقيقة المنافقين وما جبلوا عليه من الجبن وخور العزائم، والكذب والغدر والخيانة، والفجور، وأنهت وجودهم في الحياة أذلاء.

بهذه الخصائص انفردت غزوة تبوك بوضعها وقدرها:

في ظل هذه الخصائص وغيرها مما لم نذكره لتعالمه في التاريخ الإسلامي كانت هذه الغزوة منفردة بوضعها الجهادي وقدرها الاجتماعي بين غزوات المجتمع المسلم في مهد حياته، فإذا تخلف عنها مسلم لم يعرف عنه إلا الصدق في إيمانه والإخلاص في يقينه، كان ذلك من أعجب العجب الموجب للتساؤل في إشفاق واستغراب، وكان مدعاة لخوض المنافقين، وأسف حزين من عامة المؤمنين الذين تدعوهم الوحدة الإيمانية إلى حمل هَمٍّ من يهفو من إخوانهم في الإيمان، يشغلون بحاله وأمره، ويرجون من الله أن يكشف غمته، أما الذين تخلفوا نفاقًا ومرضًا في قلوبهم فهؤلاء لا يقام لهم وزن، ولا يتساءل عنهم، لأنهم معروفون بحالهم من الكذب والفجور.

ومن ثم كان موقف الثلاثة الذين خلفوا، وهم في صدق يقينهم وإخلاص إيمانهم لا يغمزون، موضع عجب وعتب، وتساؤل مشفق، وتشاغل مؤسف، حتى إذا تفضل الله عليهم قضى في أمرهم، وأنزل في شأنهم قرآنًا يتلى، لتكون قصتهم درسًا سلوكيًا في حياة المجتمع المسلم، ما بقي القرآن الكريم يُتلى في محاريب الإسلام.

وقد كان حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا - وهو حديث من أصح الصحيح، بل هو متواتر المعنى -سجلًا حافلًا بتفاصيل أحداثها منذ بدئها إلى نهايتها، رواها كعب -رضي الله عنه- في صدق وأمانة وإخلاص.

فقد وصف في حديثه حاله، ساعة أن بلغه نداء رسول الله ﷺ باستنفار الناس إلى جهاد بني الأصفر، وهم الروم، فقال: إني لم

أكن قط أقوى ولا أيسـر مني حين تخلفـت عنه ﷺ . فهو يقر على نفسـه أنـه تخلف عن مسـيرة الجهـاد مع رسـول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهو قادر قوي، ميسـر الأسـباب موفر الوسائل، وهكذا كان صاحبـاه: مـرارة بن الربيع، وهـلال بن أمية، فثلاثتهـم تخلفوا عن رسـول الله ﷺ بغير عذر يبيح التخلف، وإنمـا كان تخلفهم هكذا قضاء وقدرًا، والقضاء والقدر لا يعفيان من المساءلة، ولا ينجيان من المحاسبة، لأنهما غيب لا يعلمه المكلف، فلا ترتبط بهما مساءلته ومحاسـبته ومجازاته على ما وقع منه، والمساءلة إنما ترتبط بالأمر والنهي اللذين هما مناط التكليف وسبب الثواب والعقاب.

وقـد اشـتمل حديث كعب علـى جملة مـن المعانـي والحقائق التـي أجملها القرآن الكريم في آيـة واحدة من آياته البينات، جاءت في أسـلوب بياني رائـع الأداء، بارع الإعجاز، بليـغ الإيجاز، حاوية للكثير من معالم منهج الرسـالة الخالدة في مناحيها المختلفة، بين المعالم النفسـية والاجتماعية والتربوية مع ما صاحبها من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية.

كان حديث كعب بما حواه من المعاني والحقائق نبراس هداية للخطائين:

ومـن ثم جاء حديث كعب بن مالك فـي تفصيله لأحداث القصة ومعالم المنهج السـلوكي نبراسًـا يهتـدي به الخطـاءون الذين قد تغلبهـم نوازعهـم الغريزية فتقعد بهـم دون مكانهم مـن المجتمع المسلم، ولكن الدوافع الإيمانية تنهضهم وتتسامى بهم ليستعيدوا ما كان لهم مـن مكانة مرموقة لاعتصامهم بالصبر على المحن التي جـرت بهـا تصاريف الأقدار فـي مجاري الغيـب، لا يلحقهم ضعف معجـز، ولكنهم يتخذون من أخطائهم منائـر هداية تنير لهم طريق

الأوبة إلى الله مستسلمين لأحكامه وأقداره.

فإذا جاءتهم بشائر الإنعام بالرضا والقبول لم تبطرهم، بل تفتح لهم منافذ الشكر، وتنهضهم إلى صالح العمل، كما صنع كعب بن مالك وصاحباه مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وثلاثتهم من الرعيل الأول من أنصار الله وأنصار دينه وأنصار رسوله ﷺ، فإنهم صدقوا الله، وتابوا توبة كانت مثلًا شرودًا في رسوخ الإيمان وقوة اليقين.

عظم أثر توبة الثلاثة الذين خلفوا:

لقد كان من توبتهم أنهم طرحوا غرور الدنيا، وتصدقوا بأموالهم، وانخلعوا عن كل ما كان سببًا في تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة التي امتازت بخصائصها عن جميع الغزوات قبلها، حتى صهروا أنفسهم بنيران اليقين الذي مثل لهم ضخامة ما اقترفوه من هفوتهم، فصبروا على هجران النبي ﷺ، وهو أشق على أنفسهم من كل ما أصابهم في محنتهم، ثم صبروا على هجران المسلمين، عامتهم وخاصتهم، سواء من الأقربين أو البعداء، وصبروا على اعتزال الناس لهم خمسين ليلة، لا يكلمون ولا يعاملون في بيع ولا شراء، واجتنبهم الناس اجتنابًا كليًا شاقًا، وتغيروا لهم في كل شيء، حتى ضاقت عليهم الأرض على سعتها، فأنكروها، وصارت في أعينهم شيئًا غريبًا عليهم، وكأنها ليست هي الأرض التي عرفوها وعاشوا فوق أديمها، وطعموا من ثمرها وشربوا من مائها، قال الزمخشري في قوله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ (التوبة: ١١٨).

وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون مكانًا يقرون فيه قلقًا وجزعًا مما هم فيه.

وضاقت عليهم أنفسهم حتى كأن خلايا أبدانهم تضامرت، فلا سبيل لها إلى الحركة، وصارت قلوبهم وأرواحهم مسدودة المنافذ، لا يغشاها أنس، ولا يدخلها سرور، وكأنها خرجت من فرط الوحشة والغم من شدة ما لاقوه من بث وهم، وحزن وضيق، لإعراض الناس عنهم إعراضًا لا هوادة فيه، حتى بلغ ببعضهم فرط الغم والحزن أن تسوروا الحوائط والجدران على جيرانهم من ذوي قرباهم وأرحامهم وأحب الناس إليهم، عسى أن يجدوا عندهم منفذًا لكلمة مواسية أو نظرة مرحبة، فأبوا عليهم أن يردوا سلامهم، وتنكروا لهم، وأنكروا عليهم ما كانوا يعرفونه لهم من إخلاص الإيمان والحب لله ولرسوله ﷺ.

يقول كعب بن مالك في حديثه مصورًا بعض حاله: حتى إذا طال ذلك علينا من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت.

الأصفياء يتوبون من قريب:

لقد تاب هؤلاء الثلاثة الأصفياء توبة أشرقت بها قلوبهم، وتحاتت عنهم هفواتهم كما تتحات أوراق الأشجار حين يهزها لفح الخريف، واستضاءت بها أرواحهم بنور التطهر من أدران الشرود في أودية الخشية، متحققين بنفحات

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

ولنتأمل التعبير المتلطف بقوله:

﴿ مَسَّهُمْ ﴾

فإن فيه إشعارًا بأن هفوات المتقين ليست من ثوابت الذنوب والمخالفات، وإنما هي أشبه بمر الظلال مع جري الشمس في مقارها، وفي قوله (طائف) تبيان لعدم تمكن الوسوسة من أفئدة المتقين، وأقصى ما تبلغه منهم أن تطوف بهم، فيسرعوا إلى مسح ما عسى أن يكون قد علق بهم من رشحها بماء الاستغفار، واللجوء إلى كنف ذل الضراعة طاهرين مطهرين.

وفي قوله جل شأنه:

﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

تصوير مبدع في روعته وبراعته يكشف عن سرعة تطاير همزات الشيطان، لا تكاد تحل حبوتها في ساحات صدق إيمانهم حتى ينجلي جهامها عنهم، فإذا هم في ضياء شمس إخلاصهم ينعمون وفي عرصات التوبة النصوح يتقلبون.

وحسب هؤلاء التوابين ما هنأ به رسول الله ﷺ أحدهم وهو كعب بن مالك فقال له: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، وهذه التهنئة تحمل في طياتها أنهم أحسنوا التوبة فأحسن الله إليهم رضاءً عنهم، وأدخلهم في منازل

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

حيث بوأهم فيها أشرف مراتعها، وآتاهم الله من فضله أن جعل توبتهم قرآنًا يتعبد به إلى يوم الدين.

غزوة تبوك غزوة بيضاء وهي أعظم الغزوات:

وقد كانت هذه الغزوة البيضاء التي لم يقع فيها قتال، ولا سفكت فيها دماء، وقد عاد منها النبي ﷺ وأصحابه مكللين بتوفيق الله تعالى بعد أن أعلنوا على سمع الدنيا في قوة قاهرة صوت الإسلام في رسالته الخاتمة الخالدة، مؤذنًا للإنسانية كلها

أن قد جاء رسول من عند الله ليخرجكم من الظلمات إلى النور – أعظم غزوات رسول الله ﷺ في قوتها المادية والمعنوية، وكثافة حشودها، وضخامة جيشها الذي خرج به ﷺ إلى تبوك، مستوعبًا أكثر القادرين على حمل السلاح من المهاجرين والأنصار، فلم يعرف مهاجري تخلف عن هذه الغزوة ولا أنصاري لم يأخذ مكانه في كتائبها إلا من ذكر الله تعالى، كما خرج معه ﷺ جماهير من الأعراب ورجال القبائلِ إلا من توارى وراء أستار الأعذار، وهم قلة لم يبلغوا زهاء ثمانين رجلا.

اختلاف الروايات في عدد جيش تبوك وتحقيق الراجح من هذه الروايات:

واستنفر ﷺ أهل مكة ومن حولها فنفروا قضهم بقضيضهم حتى اجتمع له أكثر من ثلاثين ألفًا في أشهر الروايات، وروى الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل، ورواه الواقدي عن زيد بن ثابت – رضي الله عنهما –بلفظ متوافق في الروايتين، قالا رضي الله عنهما: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفًا، وهذا محتمل أن يكون المراد به جموع المهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه ﷺ من المدينة المنورة، ولم يشمل من انضم إليهم في مسيرهم من القبائل التي أسلمت قبيل فتح مكة وبعده، كما أنه لا يشمل أهل مكة الذين استنفرهم رسول الله ﷺ فنفروا معه، وكانوا عددًا كثيرًا، وهذا الاحتمال هو مخرج ما جاء من رواية عن الإمام الحافظ الثقة أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي عند الحاكم في الإكليل قال: إن الذين خرجوا مع النبي ﷺ كانوا سبعين ألفًا، وقد ذكر ابن حجر في الفتح عن هذا الإمام أبي زرعة الرازي، أن الذين خرجوا في جيش تبوك كانوا أربعين ألفًا، وهذه الرواية أقرب

إلــى روايــة الحاكم المتقدمة عن معاذ بن جبــل ، ورواية الواقدي عن زيــد بن ثابت – رضي الله عنهما –أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ في جيــش تبوك كانوا أزيد من ثلاثين ألفًا . وقــد حاول بعض أهل العلم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يتم التوفيق به إلا بتعسف وتمحل .
وأغرب ما قيل في التوفيق بين روايتي ثلاثين ألفًا ، وســبعين ألفًا أن مــن قــال ثلاثين ألفًا لم يعــد التابع ، ومن قال ســبعين ألفًا عد التابع والمتبــوع ، وهذا جمع أشــبه بالتفريق منه بالتوفيــق ، وهو من أبعد البعــد ، إذ كيــف يعقل أن يكــون التابعون أزيد عــددًا من متبوعيهم بعشرة آلاف ؟ فهل كان لكل متبوع أكثر من تابع في أكثر الحالات ، وتابع واحد في أقل الحالات ؟ وهل كانت شئون الغزوة وما فيها من عسرة في كل شيء ، عسرة في الظهر ، وعسرة في الماء ، وعسرة في القوت مع شدة الحر ، وبعد السفر ، تسمح بهذه الكثرة من الأتباع ؟ هذا تفكير متعسف ، وتأويل متمحل .

وجنح ابن حجر في التوفيق بين ما رواه الحاكم عن معاذ بن جبل ومــا رواه الواقدي أن عدد الخارجين مع النبي ﷺ إلى تبوك أزيد من ثلاثين ألفًا وبين ما نقله في الفتح عن أبي زرعة الرازي أن العدد كان أربعيــن ألفًا ، إلــى احتمال أن من قال إن العــدد كان أربعين ألفًا جبر الكسر الذي جاء في رواية أزيد من ثلاثين ألفًا ، وهذا احتمال قريب معقول .

وقد عنّ لنا في التوفيق رأي نرجح به رواية الحاكم في الإكليل عن رواية أبي زرعة أن العدد كان ســبعين ألفًا ، وذلك أن الذين نفروا معه ﷺ مــن المدينة وما حولها كانــوا موعبين لمن فيها من المهاجرين والأنصار والقادرين على حمل الســلاح من غيرهم ، وهؤلاء لا يقلون في عددهم عن أربعين ألفًا عند من يستحضر معنى قوله تعالى :

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ (النصر : ٢) .

فقد أقبلت وفود القبائل على رسول الله ﷺ بأعداد كثيرة متتابعة مبايعين مسلمين بعد الانتصار المدوي على جموع هوازن والطائف ، وهؤلاء الذين أقبلوا على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين كان قد فاتهم فضل الجهاد معه ﷺ ، فلما استنفروا نفروا راغبين إما في تعويض ما فاتهم وإما في تحصيل شيء من الغنائم التي تسامعوا بأخبارها وكثرتها ، وما كان فيها من مكارم رسول الله ﷺ وعطاياه الغامرة ، لا سيما ما كان في غنائم هوازن من ضخامة العطاء الذي كان يمثل صورة في المكارم وتأليف القلوب لم تعرف في تاريخ الأكرمين ؛ مما لعب بقلوب الذين كان طموحهم يستشرف إلى أكبر حظ من هذه المكارم والمغانم .

ثم إن النبي ﷺ بعد أن اجتمع له هذا العدد الكثير من المهاجرين والأنصار وممن كانوا حول المدينة من مسلمة الأعراب ، أرسل إلى أهل مكة ومن حولها من القبائل التي أسلمت بإسلام قريش يستنفرهم للنهوض معه إلى تبوك لجلاد بني الأصفر ، فنفروا رغبة ورهبة ، و أقبلت حشودهم منضمين إلى كتائب الجهاد التي كانت مع رسول الله ﷺ ، فبلغ بهم عدد الجيش سبعين ألفًا أو يزيدون ، مع من عسى أن يكون قد انضم إليهم في طريقهم من القبائل المسلمة .

وعسكر ﷺ بهذه الحشود الكثيفة بثنية الوداع ليكمل من لم يكن أكمل أهبته لهذا السفر البعيد الشاق ، وفي ثنية الوداع عقد ﷺ الألوية والرايات ودفعها إلى قادة الكتائب ، وأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ودفع رايته العظمى إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه ، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة أو حباب ابن المنذر .

واتخذ ﷺ علقمة بن الغفو الخزاعي دليله إلى تبوك، وبدأ سيره يوم الخميس، وكان ﷺ يحب أن يبدأ سفره في هذا اليوم في جهاد أو غيره.

وهنا تفاجئ البحث رواية بلهاء كأنها حديث خرافة، رواها ابن إسحاق والواقدي ومحمد بن سعد، قالوا أو قال من قوَّلهم: وقد عسكر عبد الله بن أبي بن سلول - رأس النفاق وزعيم المنافقين - مع النبي ﷺ واتخذ لعسكره مكانًا منفردًا عن عسكر المسلمين، وأقام ابن أبي بعسكره مدة إقامة النبي ﷺ بثنية الوداع، فلما أجمع ﷺ السير إلى وجهه الذي أعلنه لأصحابه وتحركت حشود المسلمين انخزل ابن أبي بمن معه من شراذم المنافقين، وتخلف بهم عن رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة، وهو يقول ليثبط الضعفاء من الذين آمنوا يبغيهم الفتنة، وفيهم سماعون للمنافقين: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر، والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب أن قتالهم اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين بالحبال .إرجافًا به ﷺ وبأصحابه.

ثم قال رواة هذه الأبطولة البلهاء: وكان عسكر ابن أبي فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، أي إن هؤلاء الزاعمين البلهاء يقولون: إن عسكر النفاق والمنافقين بقيادة زعيمهم أخبث المنافقين كانوا أزيد من ثلاثين ألفًا، لأن هذا هو أقل عدد اتفقت عليه جمهور الرواة من أصحاب المغازي وأهل السير، وقد جزم ابن حزم ببطلان هذه الرواية البلهاء إذ يقول: هذا باطل، لم يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا ما بين السبعين إلى الثمانين فقط.

ولكن هذه الروايات البلهاء الباطلة تحتل في السيرة النبوية الشريفة ودواوينها ومراجعها مكانًا يمد أعداء الإسلام بمدد من

الأكاذيب والأباطيل والتقولات وسخافات الأفكار والآراء بما يكون وسيلة للشك في الصحيح من الروايات، ولا ندري لهؤلاء الزاعمين الذين حكى عنهم ابن إسحق والواقدي وتلميذه محمد بن سعد هذه الأكذوبة السخيفة وجودًا بين أهل العلم، فلا يعرف من هم وما هم، وما هويتهم، ولا وزنهم العلمي، ومكانتهم في مجال الفكر ولا معرفتهم بنقد الروايات في أسانيدها ومتونها.

ثم كيف يعقل هؤلاء الأشياخ الذين رووا في كتبهم هذه الرواية ولطفوها بقولهم: (فيما يزعمون) وهم يعلمون أنهم في عداد أساطين أهل المغازي والسيريين، وأن كتبهم ورواياتهم مراجع لأحداث الغزوات وحوادث السيرة ووقائعها، وبطلان هذه الروايات لا يحتاج إلى توقف باحث، ولا تحقيق ممحص؟

مناقضة هذه الرواية البلهاء حماية لمن يقرؤها في مصادرها:

وكان يكفي هؤلاء الأشياخ الثلاثة لعدم ذكر هذا الكلام الذي يتنافى مع بدهيات تاريخ الجهاد الإسلامي، أن غزوة تبوك كانت آخر غزوات رسول الله ﷺ، وقد سبقها غزوات مع المشركين العرب، ومع اليهود، وهم أساتذة النفاق والمنافقين، ومربو عبد الله بن أبي في مدرسة نفاقهم وغدرهم، وقد انتهت هذه الغزوات كلها بإسلام مشركي العرب، وإجلاء اليهود بجميع هيئاتهم وطوائفهم عن المدينة، ثم عن جزيرة العرب كلها إلا من أبقاهم رسول الله ﷺ في خيبر لفلاحة الأرض وزراعتها على شرط أن لا يفسدوا ولا يغدروا، فأقاموا على الشرط مقموعين مقهورين بسلطان الإسلام والمسلمين حتى أجلاهم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه -لنقضهم العهد وخيانتهم وغدرهم.

ومـن ثم لم يكن لمنافقي اليهود أي وجـود في المدينة المنورة، كما أنه لم يكن من مشركي العرب من بقي على شركه بعد فتح مكة إلا قلة ضئيلة منثورة في الأرض مع حبات الرمال، هكذا يقول التاريخ الصحيـح فمـن أين جاء ابـن أبي بهذا العـدد الهائل مـن المنافقين الـذي قالت عنهم الروايـة البلهاء أنهم لم يكونوا بأقل العسـكرين - أي إنهم كانوا مثل عدد عسـكر المسـلمين أو أكثر منهم - وقد جـاءت رواية الجمهور بأن عدد عسـكر المسـلمين كان يزيد على ثلاثيـن ألفـًا، فهل كان المنافقـون من العرب من أهـل المدينة بعد فتـح مكة بهذه الكثرة المخيفة المرعبة؟ وهل كان رسـول الله ﷺ على علم بهذه الأعداد الهائلة من المنافقين في مدينته؟ والمنافقون قد انكشـف أمرهـم وظهر نفاقهم في كثير مـن الأحداث والوقائع، وقـد نزلت في بعثرة فضائحهم وكشـف أسـتار نفاقهم وقبائحهم، وغدرهـم وخياناتهـم سـورة بـراءة حتى أكثـرت من قولهـا فيهم: «ومنهم، ومنهـم» حاكية مثالبهم ومخازيهم، وفـي آياتها جاء قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾

(التوبة: ٧٣).

فهل مـن امتثال الأمر بجهادهم والغلظـة عليهم أن يتركوا بهذه الصورة الحاشدة مُعَسْـكرينَ في انفراد عن المسلمين إلى جانبهم، ويراهـم رسـول الله ﷺ والمسـلمون معـه، ثـم يتركهـم يرجعون إلـى المدينـة منتفخة أوداجهـم، متورمة بالفجور معاطسـهم، وفي المدينة المسـتضعفون من الرجال والنسـاء والذرية، وفيها زوجات رسـول الله ﷺ وآله، ولم يكن معهم من أبطال المسـلمين سـوى عليّ رضي الله عنه؟ وإفساد المنافقين متعالم لا يخفى على أحد.

هــذا كله من حصيلة هذه الرواية البلهــاء من أبعد البعد، بل من المســتحيل أن يقــع من رســول الله ﷺ لشــدة حــذره وحرصه على حماية المســلمين ووقايتهم من التعرض للفتــن الموبقة على أيدي أعدائه وأعداء دينه ورسالته ومجتمعه المسلم.

ثــم هل يعقل أن تبلغ النبي كلمات الخبيث ابن أبي الخبيثة التي قالهــا وهو يرحل بحشــوده المنافقين - كما تقولــه الرواية البلهاء - راجعيــن إلــى مدينة رســول الله ﷺ، ويطمئــن النبي إلى ســلامة موقفه، وموقف مشايعيه من شــراذم النفاق، ويتركهم يرجعون إلى المدينــة دون أن يتخــذ حيالهــم أية إجراءات سياســية تحول بينهم وبين شــرورهم ومفاسدهم التي تمتزج بدمائهم وظلمات أرواحهم، ونســج قلوبهم، ولــو بتنبيه أقوامهم من صادقي الإيمان في حشــود المســلمين؟ كما كان يقــع في أحداث مؤامــرات المنافقين، فكان أقوامهــم هم الذين يقفون لهم بالمرصــاد، كما حدث في غزوة بني المصطلق التي ظهــر فيها موقف الرجل الصالح صادق الإيمان عبد الله بــن عبد الله بن أبــي من أبيه زعيم المنافقين حيــن بلغه قول أبيه الذي حكاه عنه الله في قوله:

﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾

(المنافقون: ٨)

ثم إن معاني كلمة الخبيث ابن أبي الخبيثة التي قالها على مسمع من المســلمين أما كانت موجودة في نفسه منذ عرف أن هذه الغزوة أعدت لجلاد بني الأصفر الذين قال عنهم ما قال في كلمته الخبيثة، مما يمس مقام رســول الله ﷺ، وهي كلمات تداولها من قبله فجرة الكفرة المغرورون بقواهم المادية في غزوات ســابقة، فهي ليســت من افتئات ابن أبي. والذي يمكن أن يكون قد كان لا يخرج عن كون

ابن أبي جمع حوله شرذمة من بقايا المنافقين، وصنع ما صنع في أحد، بيد أن طريقة ابن أبي التي ألبسته الرواية البلهاء جلبابها أشبه ما تكون بطريقة معلميه اليهود فيما حكاه الله عنهم من سوء المكر في الإرجاف بالمسلمين، ونشر الفتنة في قلوب الضعفاء من حدثاء الإسلام، كما حكاه الله عنهم في سورة آل عمران في مطلع نشوء المجتمع المسلم في بنائه التكافلي الجديد، فقال تعالى:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢)

قال قتادة: إنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين، وقال القرطبي: ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد أول النهار ثم اكفروا به آخره، فإنكم إذا فعلتم ذلك دخل على من يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون: إن أهل الكتاب أعلم به منّا.

تشابه بين خبث اليهود وفجور المنافقين:

فخبثاء المنافقين أخذوا طريقة خبثاء معلميهم من خبثاء اليهود في تشكيك ضعفاء الإيمان من حدثاء الإسلام في دينهم الحق، إذ وسوسوا إلى سفلتهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويظهروا التصديق برسالته أول النهار، ثم يكفروا بما أظهروا الإيمان به آخر النهار، فإذا رآهم ضعفاء الإيمان في تقلبهم بين الإيمان أول النهار، والكفر آخر النهار تساءلوا في أنفسهم: لماذا آمنوا صباحا ثم كفروا بما آمنوا مساء، وهم أهل العلم الأول، والكتاب المنزل، وعندئذ يتسرب الشك إلى قلوبهم، ويفتنون في إيمانهم وعقيدتهم.

والمنافقون دبروا كيدهم عندما علموا بغزوة تبوك، وأن النبي ﷺ أعلن عنها وأمر أصحابه بالتأهب لها، فأعد المنافقون عدتهم،

وتأهبوا لموقف النفاق أهبتهم، وخرجوا مع المسلمين بأهبتهم ليوهموا المسلمين أنهم جاءوا معهم مجاهدين، وعسكروا منفردين عن عسكر المسلمين خشية أن يرى غوغاؤهم وسفلتهم ما عليه المسلمون من إخلاص الجهاد لله، وإعلاء كلمته، ويروا ما هم عليه من استقامة في العقيدة والتعبد لله وحده، فيميلوا ميلهم ويتركوا النفاق والكفر، أو على الأقل يتشككون فيما عليه أخابثهم من فجور النفاق.

ولما رآهم المسلمون في كثرتهم- كما تقول الرواية البلهاء- أنسوا بهم وقالوا: لعل وعسى، وهذا في مقابلة قول خبثاء اليهود وسفلتهم آمنوا بمحمد ودينه وجه النهار- أي أوله- ثم لما عزم رسول الله ﷺ السير لوجهه الذي يقصد، وتحركت كتائبه نكص المنافقون على أعقابهم، وحضرهم غدرهم ونفاقهم وفجور كيدهم، فانخزلوا مدحورين راجعين إلى المدينة، وقال ابن أبي كلمته الفاجرة الكافرة ليثبط بها عزائم ضعفاء الإيمان من حدثاء الإسلام، ويشكك الذين في قلوبهم مرض لعلهم يرجعون. وهذا في مقابلة قول خبثاء اليهود لسفلتهم: ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾

وكما فشل اليهود في كيدهم وأحاط بهم سوء مكرهم فلم يقع من المسلمين ما أرادوه من الرجوع عن دينهم الحق فَشل المنافقون في سيء تدبيرهم فلم ينالوا مما أمَّلوه شيئًا، وعصم الله المسلمين في الموقفين وخذل اليهود والمنافقين في الحالين.

مشاورة يتعين فيها موطن الشورى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ بجيشه تبوك شاور أصحابه في التقدم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن كنت

أُمرت بالمسير فسر، فقال ﷺ: «لو أمرت بالمسير لم أستشركم فيه» وهذا نص يعين مواطن الشورى ويبين منازلها في رسالة الإسلام، فهي لا تكون إلا فيما خلا عن نص يتضمن حكمه، لأن الشورى لون من الاجتهاد، والاجتهاد لا يكون إلا فيما لا نص فيه.

وهذا من أعظم معالم منهج رسالة الإسلام الخالدة في تربية الأمة تربية اجتماعية سياسية تكافلية، لأن مبدأ الشورى في الإسلام مبدأ أساسي لا يجوز للمجتمع المسلم أن يتهاون في العمل به أو يتراخى في إقامة معالمه. ثم قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه -مبينا لحكمة رأيه: يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، ليس بها مسلم، وقد دنونا منهم وأفزعهم دنوك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمرًا.

في قول عمر- رضي الله عنه -بيان تحقق هدف هذه الغزوة:

وهذا الموقف من عمر- رضي الله عنه -أشبه به موقفه مع أبي بكر- رضي الله عنه -في بدء حرب الردة، وفي قول عمر لرسول الله ﷺ قد دنونا منهم وأفزعهم دنوك بيان تحقيق هدف هذه الغزوة، وحكمتها في تجريء المسلمين على الخروج بالدعوة، ونشر الرسالة خارج نطاق الجزيرة العربية إعلانًا عمليًا لعموم الرسالة، وربط ذلك بالجهاد في سبيل تعميم الدعوة إلى الله إظهارًا لعزة الإسلام، وما آتاه الله من قوة التكافل الاجتماعي، والمؤاخاة الإيمانية، فجمع له القوة المادية بالتكافل الاجتماعي والقوة الروحية بالمؤاخاة الإيمانية.

ولهذا أعاد رسول الله ﷺ الكتابة إلى هرقل عظيم الروم يدعوه

إلى الإسلام، ولم ير ﷺ مهاجمته، لأنه عرف منه اهتزاز نصرانيته، وقناعته بصدق دعوة الإسلام، ولكنه آثر الدنيا وعض على ملكه، وخاف على نفسه من قومه إذا انخلع عن نصرانيته ودخل في الإسلام، فتركه إلى أن يحين حين أخذ ما تحت قدميه من ملكه في الشام.

وكان هذا الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ إلى هرقل بتبوك تأكيدًا لكتابه الأول، وتجديدًا لدعوته إلى الإسلام ليضع أمام عامة المسلمين تكليفهم الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة، وأن يبدءوا بمن يلونهم من الكفار لتقوم مسيرة نشر الدعوة على التدرج الذي يمكن للمسلمين من تثبيت أقدامهم في مواطن الجهاد، كما أمرهم الله تعالى في قوله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾

(التوبة: ١٢٣)

وكتاب رسول الله ﷺ الأول إلى هرقل كان في مدة هدنة معاهدة الحديبية سنة ست من الهجرة، وكان رسولُ رسولِ الله ﷺ إلى هرقل بالكتابين في مرتيها الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي، والكتاب الأول مروي في الصحيح في حديث طويل، كان لأبي سفيان بن حرب حديث في قصته وهو يومئذ على كفره وعناده، وكان حديث أبي سفيان سببا من أسباب تأكيد قناعة هرقل بصدق رسالة الإسلام ولكنه سبق عليه القضاء فلم يسلم، واكتفى بأن كتب إلى النبي ﷺ كتابًا زعم فيه أنه مسلم، فأكذبه النبي ﷺ ولم يقبل منه ما زعمه من إسلامه، وقال فيه:

«كذب عدو الله، بل هو على نصرانيته»

وكان أشد الروم على هرقل في الحيلولة بينه وبين الإسلام قومه

وأهله، قال السهيلي: إن هرقل أمر مناديًا ينادي: ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه، فدخلت عليه جنوده في سلاحها تريد قتله، فاحتال لتهدئتهم وأرسل إليهم، إني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيت عنكم، فرضوا عنه.

رد هرقل على كتاب رسول الله ﷺ في تبوك بأنه مسلم:

وفي صحيح ابن حبان من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن هرقل كتب إلى رسول الله ﷺ كتابًا يجيب فيه عن كتاب رسول الله ﷺ الذي دعاه فيه إلى الإسلام، فقال هرقل: إني مسلم ولكني مغلوب على أمري، وأرسل هرقل كتابه مع دحية، وأرسل معه هدية فلما قرئ كتابه على رسول الله ﷺ قال: «**كذب عدو الله ليس بمسلم، بل هو على نصرانيته**»

وقبل هديته على أنها فيء أفاءه الله على المجاهدين فقسمها بينهم، وقد بين الحارث بن أبي أسامة في روايته عن بكر بن عبد الله نوع الهدية التي أرسل بها هرقل إلى رسول الله ﷺ مع كتابه، وأنها كانت دنانير، فقال الحارث: قال رسول الله ﷺ: «**من يذهب بهذا الكتاب إلى قيصر، وله الجنة؟ فقال رجل من الصحابة: وإن لم يقبل؟ فقال ﷺ: وإن لم يقبل**»

فانطلق الرجل فأتى قيصر بالكتاب، فقرأه قيصر، وقال للرسول: اذهب إلى نبيكم، فأخبره أني متبعه ولكن لا أريد أن أدع ملكي، وبعث قيصر مع الرسول بدنانير إلى رسول الله ﷺ فرجع الرسول إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان من هرقل، ودفع إليه هديته، فقال رسول الله ﷺ «كذب» وقسم الدنانير.

وفي حديث الحارث زيادات وفوائد ولطائف لم تذكر في حديث

غيره، وأحسن ما في هذا الحوار عرض النبي ﷺ على أصحابه ذهاب أحدهم إلى قيصر- وهو هرقل ملك سوريا- وشرطه لمن يذهب بكتابه إليه الجنة، وموضع الحسن في ذلك دلالة هذا العرض المتلطف مع شرطه على ما كان يعلمه رسول الله ﷺ من التهيب الذي كان يملأ قلوب العرب لمن حولهم من الأمم خارج جزيرتهم، وإرادة النبي ﷺ من عرضه على هذه الصورة تجريء المسلمين على هذه الأمم، تحقيقًا لهدف هذه الغزوة، وإفهام المجتمع المسلم عمليًا أن هذا التهيب الذي توارثوه عن الجاهلية إنما يقوم على التخيل، وليس له من الواقع ركائز يتكئ عليها، فيجب اقتحامه في سبيل تبليغ رسالة الله تعالى إلى الأحمر والأسود، وأن المسلم هو الرابح في هذا الاقتحام، لأنه إما أن يفوز بالنصر على حشود الكافرين، وإما أن يستشهد في سبيل الله، فيفوز بالجنة ونعيمها المقيم.

ويؤكد ذلك قول الرجل للنبي ﷺ ولو لم يقبل؟ وهذا قول يبرهن على أن قصد هذا الرجل من استفهامه أن يفوز بأداء هذه الرسالة وما وعد على أدائها لمجرد أن يذهب بالكتاب إلى هرقل، ولا يلزمه أن يخاطبه ويحاوره ليقنعه بقبول ما حواه كتاب رسول الله ﷺ من دعوته إلى الإسلام والدخول فيه، نظرًا لما كان في نفس الرجل باعتباره نموذجًا عربيًا من التهيب الذي كان موجودًا عند كل عربي قبل الإسلام، وقبل هذه الغزوة.

وفي قول النبي ﷺ (لم يقبل) بيان أن المقصود هو الذهاب إلى قيصر، واقتحام التهيب ليكون ذلك خطوة أولى في تجريء المسلمين على اقتحام هذا التهيب الذي لا يعتمد في واقعه على شيء من الحقيقة، ولو كان هذا التهيب حقيقة لها وجود واقعي

لـكان في اقتحامـه لون من التربيـة العملية التي تطهر المسـلم من الخوف والجبن، وتعوده على الشـجاعة النفسية والجرأة الإيمانية، فما بالك بشيء لا وجود له.

وقـد ذكر ابـن القيم فـي (الهدي) هـذا الحديـث مختصرًا عن أبـي حاتـم وابن حبان فـي صحيحه عن أنـس بن مالك فقـال: وقد روى أبـو حاتـم وابن حبان في صحيحه عن أنـس بن مالك قال: قال رسـول الله ﷺ «من ينطلـق بصحيفتي هذه إلى قيصـر وله الجنة؟» فقـال رجل من القوم: وإن لم يقبل؟ قال ﷺ «وإن لم يقبل» فوافق- أي الرجـل الحامـل لصحيفة رسـول الله ﷺ قيصر وهـو يأتي بيت المقـدس، فرمى بالكتاب على البسـاط وتنحـى، فنادى قيصر: من صاحب الكتاب؟ فهو آمن، قال الرجل: أنا، قال قيصر: فإذا قدمت فائتنـي، فلمـا قدم أتاه، فأمـر قيصر بأبواب قصـره فغلقت، ثم أمر مناديًـا ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمـدًا وترك النصرانية، فأقبل جنده وقد تسـلحوا، فقال لرسول رسول الله ﷺ إني مسلم، وبعث إليـه بدنانير، فقال رسـول الله ﷺ «كذب عدو الله، ليس بمسـلم، وهو على النصرانية» وقسم ﷺ الدنانير.

حيرة هرقل وخوفه من قومه وضنه بملكه حال بينه وبين الإسلام:

وقال ابن كثير: قال الإمام أحمد عن سـعيد بن أبي راشـد، قال: لقيـت التنوخي رسـول هرقل إلى النبي ﷺ بحمـص وكان جارًا لي شيخًا كبيرًا قد بلغ العقد أو قرب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ورسالته ﷺ إلى هرقل؟ قال: بلى، قدم رسول الله ﷺ تبـوك، فبعـث دحية إلى هرقل بكتاب، فأرسـل هرقل إلى قسيسـي الروم وبطارقتها يدعوهم إلى مجلسـه، ثم أغلق عليه وعليهم الدار،

وقـال لهم: قد نزل هـذا الرجل- يريد رسـول الله ﷺ حيث رأيتم، وقـد عرفتم فيما قرأتم من كتب، ليأخـذن أرضنا، فهلم فلنتبعه، أو نعطـه مالا، فنخـروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسـهم، وقالوا لهرقل: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيدًا لأعرابي جاء من الحجاز؟ فلما رأى ذلك هرقل منهم قال يسترضيهم ويطفئ جمـرة غضبهم، إنما أردت أن أعلـم صلابتكم في دينكم، فلما ظن هرقل أنهم إن خرجوا من عنده أفسـدوا عليه الروم رفأهم ولم يكد، ثـم دعا هرقل رجلا من عرب تجيب كان علـى نصارى العرب فقال له: ادع لي رجلا حافظا للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل، فجـاء التجيبي بي، فدفـع إليّ هرقل كتابا. وقـال اذهب إليه- يريد رسـول الله ﷺ فاحفـظ من حديثه ثلاثًا هل يذكـر كتابه الذي كتب إلي، وإذا قرأ كتابي هل يذكر الليل، وهل في ظهره شيء؟

قصة رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بكتاب هرقل:

قال التنوخي: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكًا، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبيًا على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قالوا هاهـوذا؟ فأقبلت أمشـي حتى جلسـت بين يديه فناولتـه الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال «ممن أنت؟» فقلت: أنا أخو تنوخ، قال: «هل لـك في الإسـلام والحنيفية ملـة أبيكم إبراهيـم؟» قلت: إني رسـول قوم، وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(القصص: ٥٦)

«يـا أخا تنوخ إنـي كتبت بكتاب إلى كسـرى فمزقه والله ممزقه

وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها، والله مخرقه ومخرق قومه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام في العيش خير» فقلت: هذه إحدى الثلاث، فكتبتها في جفن سيفي، ثم ناول الكتاب إلى معاوية، فقرأ فيه: تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ «سبحان الله؟ فأين النهار إذا جاء الليل؟» فكتبته في جفن سيفي.

وقد ود التنوخي رسول هرقل أن يعطيه رسول الله ﷺ جائزة، فأتاه عثمان بن عفان- رضي الله عنه -بحلة، وأمر النبي ﷺ بإنزاله عنده، فقام التنوخي مع الأنصاري، فناداه النبي ﷺ فكشف له عن ظهره، فرأى خاتم النبوة.

سبب هذه الغزوة الحقيقي هو الإعلان العملي لعموم الرسالة:

وهذه الروايات المتضافرة وإن اختلفت في سياقها وأسلوبها تؤكد ما رجحناه في سبب هذه الغزوة الخاتمة لغزوات النبي ﷺ وتبين أن السبب الحقيقي لها يكمن في علم النبي ﷺ أن انتقاله إلى الرفيق الأعلي قد دنا، وأنه لا يغزو بنفسه في داخل جزيرة العرب بعد أن أتم الله عليه نعمته، وأكمل له دينه الحق، وثبت له قوائم رسالته، واستسلم له العرب، ودخلوا في دين الله أفواجًا، وأقبلت عليه وفودهم من كل حدب ينسلون، يبايعونه على الإسلام، ولم يبق له ﷺ في حياته المباركة الشريفة إلا أن يخطو بمجتمعه المسلم الخطوة الأولى في إعلان عموم رسالته عمليًا، بعد أن أعلنها القرآن الكريم نظريًا في كثير من آياته البينات في تطبيق عملي يقوده ﷺ بنفسه في غزوة استوعبت جماهير المجتمع المسلم،

ليريهــم من آيات الله، في عموم الرســالة ما يجب عليهم أن يتخذوه منهجًــا في الدعــوة إلى الله حتى لا يكون لأحد من المســلمين حجة فــي التخلف عن الجهاد لتبليغ عموم الرســالة إلى العالمين تحقيقًا لمعنى قوله تعالى

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾

(الفرقان: ١).

فكمــا حملوا لواء الجهاد وراياته لنشــر الهداية في نطاق العرب الخــاص بجزيرتهــم، فليحملوا لواء هــذا الجهاد وراياته إلى ســائر الأمم والشعوب، لا فرق بين أسود وأبيضٍ حتى يتعالم هذا التكليف بنشر عموم الرسالة وتتناقله الأجيال جيلًا بعد جيل.

وفي هذه الغزوة العظمى وضع رسول الله ﷺ قاعدة الحجر الصحي:

في هذه الغزوة وضعت قاعــدة الحجر الصحي وقاعدة التحصين ضــد الأوبئــة وقاعدة الوقايــة خير من العلاج، بقولــه ﷺ: «إذا وقع الطاعــون بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منهــا، وإن كنتم بغيرها فلا تقدمــوا عليهــا» وهذا الحديث هو الذي حســم به عبــد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه -الموقف الذي كان بين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح حين قدم عمر إلى الشام في خلافته، وكان الطاعون قــد وقع بها فتوقف عمر عن الدخول إليهــا، فلامه أبو عبيدة، وقال لــه: أفرارًا من قــدر الله، فقال عمر: نفر من قــدر الله إلى قدر الله، ثم تــدارك الموقف عبد الرحمن بن عــوف وروى لهما الحديث - وهو من أحاديث مسند أحمد - فحسم به القضية.

وكذلــك وضــع ﷺ قاعــدة: الوقايــة خير مــن العــلاج، وقاعدة

التحصيـن ضـد الأوبئـة العامـة وانتقال عدواهـا مـن المريض إلى الصحيح بهذا الحديث الشريف .

مصالحة يحنة بن رؤبة وقومه. :

وفـي تبـوك قدم علـى النبي ﷺ يحنـة بن رؤبة صاحـب أيلة ، إذ بلغـه أن النبـي ﷺ بعث خالـد بن الوليد إلى أكيـدر بن عبد الملك أحد رؤساء متنصرة العرب ، وأسره خالد وقتل أخاه حسانًا ، واضطر أكيـدر إلـى أن يفتح حصنه لكتائـب المجاهدين ، فخـاف يحنة بن رؤبة أن يرسـل إليه النبي ﷺ سـرية كما أرسـل إلى أكيدر صاحب دومة ، فأسـرع يحنة إلى المصالحة حقنًا لدماء قومه ، فصالحه النبي ﷺ ، وأمر أن يكتب له بصلحه كتاب ، فكتب له : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ، ومحمد النبي ، رسـول الله ﷺ ليحنة ابن رؤبة وأهل أيلة ، أسـاقفتهم وسـائرهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله ، وذمة النبي ، ومن معه - أي مع يحنة - من أهل الشـام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسـه ، وأنـه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنـه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقًـا يريدونـه من بر أو بحر » هذا كتـاب - أي كتابة - جهيم بن الصلت ، وشـرحبيل بن حسنة ، بإذن رسول الله ﷺ . وكان يحنة قـد أهدى النبي بغلة بيضاء ، فكسـاه النبي ﷺ بـردًا ، والتزم يحنة بالجزية عن نفسه ، وعن أهل مدينته ، وكانوا ثلاث مئة رجل ، فوضع النبي ﷺ الجزية عليهم ثلاث مئة دينار كل سنة .

ونص هـذا الكتاب الذي ذكرناه أورده ابن إسـحاق ، وابن سـيد النـاس صاحب عيون الأثر ، وذكره ابن سـعد عن شـيخه محمد بن

عمر الواقدي، ثم ذكر ابن سعد رواية أخرى لنص الكتاب مختلفة بالزيادة عن النص المتقدم.

نص آخر لكتاب مصالحة يحنة بن رؤبة:

قال ابن سعد: إنه ﷺ كتب إلى يحنة بن رؤبة وسروات أهل أيلة - أي أمر بالكتابة لهم -: «سِلْمٌ أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلم، أو أعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسل رسوله، وأكرمهم، واكسهم كسوة حسنة، فمهما أرضيت رسلي فإني قد رضيت وقد علمت الجزية، فإن أردتم أن يأمن البحر والبر فأطع الله ورسوله، ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله، وإني رسول الله بالحق أومن بالله وكتبه ورسله، والمسيح بن مريم أنه كلمة الله، وإني أومن به أنه رسول الله، وائت قبل أن يمسكم الشر، فإني أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق من شعير، وإن حرملة شفع لكم، وإني لولا الله وذلك - أي شفاعة حرملة - لم أراسلكم شيئًا حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن كان معه ورسلي وشرحبيل وأبو حرملة - تقدم أنه حرملة - وحريث بن زيد الطائي، فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم».

قال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني: ولعل هذا الكتاب أرسل ليحنة قبل أن يقدم على رسول الله ﷺ، والظاهر أن رسل رسول الله ﷺ أتوا يحنة وضربوا عليه وعلى أهل مدينته الجزية فلم يقنع بما صنعوا، وأسرع إلى رسول الله ﷺ فأهدى له وصالحه، وأمر ﷺ أن يكتب له الكتاب الموجز المتقدم، وهو كتاب الصلح

والجزية التي ضربها رسول الله ﷺ على أهل مدينته.

وهذا من أحسن ما يُقال في الجمع بين الروايتين، وهو خير من الأخذ برواية وترك الأخرى ما لم يكن في إحداهما ضعف ظاهر في السند أو المتن يستوجب تركها، ثم قدم على رسول الله ﷺ أهل جربا، وأهل أذرح، وهما بلدان صغيران من بلاد الشام متقاربان بينهما ثلاثة أميال، ولهذا التقارب الذي يجعلهما كالبلد الواحد في وحدة مصالحهما، جاء وفدهما موحدًا من رجالهما وطلبوا الصلح وإعطاء الجزية، فصالحهما رسول الله ﷺ، وأمر أن يُكتب لهما كتاب واحد بهذا النص: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ لأهل أذرح وجربا: أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مئة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين في المخافة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين، فهم آمنون».

قص أجنحة الروم بهذه المصالحات وتحرير متنصرة العرب من التبعية الرومانية:

وقد كان هؤلاء المتنصرون من العرب أجنحة للروم، يقيمون على مشارف الشام وبعض القرى المسامتة للجزيرة العربية، وقد تابعوا الروم على نصرانيتهم دون أن يعقلوا من هذه النصرانية شيئًا سوى بعض طقوس شكلية لا تغني عنهم شيئًا، فإقدام من أقدم منهم على مصالحة رسول الله ﷺ والتزامهم بالجزية قص لهذه الأجنحة، وبتر لحبال تبعيتهم للروم، وتحرير لهم من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئًا

يعيشون به، وخوفًا من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يدٍ وهم صاغرون.

سياسة حكيمة اختطها رسول الله ﷺ لإعلان عموم دعوته عمليًا:

هذا نوع من السياسة الحكيمة المحكمة التي اختطها رسول الله ﷺ في إعلان عموم رسالته إعلانًا عمليًا، قاد لتحقيقه المسلمين بنفسه في أعظم غزوة غزاها، وختم بها غزواته، حشد فيها كل من كان من أهل الجهاد في مجتمعه المسلم الذي رباه نظريًا وسلوكيًا فأحسن تربيته، وخاض به معارك الجهاد في داخل الجزيرة العربية حتى أخضعها، واستسلمت له قبائلها وبطونها، وجاءته وفودها تبايعه على الإسلام، ورأى ﷺ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا.

وكان عموم رسالته ﷺ يقتضيه بوصف كونه القائد الأعظم الذي وجب له بمقتضى الرسالة العامة الخاتمة الخالدة أن يجعل من مجتمعه المسلم حاملًا لواء عموم الدعوة ونشرها في الآفاق، وتحقيق ذلك يلزمه أن يمحو من قلوب هؤلاء الذين صاروا منبع استنبات الكتائب الجهادية، الخوف والتردد في جهاد من كان خارجًا عن نطاق ميادين نشر الدعوة في داخل الجزيرة العربية من الأمم التي كانت الجاهلية العربية تتهيبهم وتخافهم، وتخشى بطشهم لما وقر في نفوسهم من تمثل القوة المادية التي يملكونها، فجاءت غزوة تبوك لتزيل من صدور أفراد المجتمع المسلم آثار هذا التهيب والخوف، وتجرئهم على إزاحة عوائق الجهاد لهذه الأمم والشعوب، وهؤلاء العرب الذين حملوا لواء الرسالة ونهضوا لنشرها بعد رسول الله ﷺ والخروج بها إلى آفاق الحياة الفسيحة

فــي أقطار الأرض ليخرجوا الإنســانية من ظلمات الاســتعباد الظلوم إلى نور الحرية المشرق بالعلم والإيمان.

وقد كان هذا من أهم وأعظم العوامل التي أسرعت بتطهير الشام من نير الاســتعباد الروماني في عهــدي الخليفتين الأولين: الصديق أبــي بكر، ثــم الفاروق عمــر - رضي الله عنهما -علــى أيدي أبطال الإســلام من أضراب خالد بن الوليــد، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وعمــرو بــن العاص، ويزيد بن أبي ســفيان وشــرحبيل بن حســنة، وغيرهم من القادة الذين شــهروا بمواقف البطولة وسياســة القيادة الحربية.

تشريف هذه الغزوة بما وقع من آيات كونية:

وقد شرف هذه الغزوة بما زادها شرفًا، فكانت - على ما فيها من حشود إسلامية متكاثفة مســتوعبة للمهاجرين والأنصار ومن أسلم من رجالات القبائل وأهل مكة ومن حولهم - غزوة بيضاء لم يقع فيها مواجهة قتالية بين المسلمين والروم، ولكنها كانت مباءة لفضل الله وإحســانه، فأكرم الله فيها نبيه وحبيبه ﷺ بآيات كونية ومعجزات إلهية زادت قلوب المسلمين تثبيتًا ويقينًا، وأرغمت الشيطان، فلم ينل منهم منالاً في شــدة ما لا قوه من أزمات ومحن، تقبلوها بالصبر الجميل، وملأت قلوب المنافقين غيظًا أحرق أكبادهم، وأشــجتهم وفضحتهم وكشــفت عن ســوآتهم وخبــث نفاقهم وســيء مكرهم وتدبيرهم المكايد للمســلمين لينشــروا بينهم الفتن والبلبلة، فرد الله بهــذه المعجزات الكونية كيدهم فــي نحورهم، ودمغتهم بالذل والصغار، وألبستهم لباس المهانة والخذلان، وقضت على وجودهم في الحياة، فبقي من بقي منهم هياكل من أشباح لا روح فيها.

ونحــن نذكــر هنا من هذه الآيــات المعجزة التي أكــرم الله تعالى

بهـا نبيه محمدًا ﷺ – زيادة في تشـريفه والتنويه بمقامه المنيف، وأنقذ بها عباده المجاهدين في سـبيل الله، إعـلاء لكلمته، وإعلانًا عمليًا لعموم دعوة الحق والهدى والخير – ما صحت روايته، وثبتت واقعيته.

وسبيلنا في تقبل ذلك والإيمان به هو سبيلنا فيما مهدناه من بحث هذه الآيات الباهرات في إعجازها في بحث (محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته) الذي هو أول بحوث هذا السفر في سيرة الرسول ﷺ، وقد كتبنا هذا البحث ليكون مقدمات ممهدات لهذا الكتاب، لأنه بحث يدور حول حياة محمد ﷺ إنسانًا مكملًا بأكمل ما في البشرية من محاسن الفضل ومكارم الأخـلاق، قبل أن يبعثه الله رسولًا.

وقـد عرضنا هناك بعـض الإرهاصات المعجـزة التي ثبتت صحة وقوعهـا برواية الثقات الحفاظ، وبينا عند عرضها أنها آيات تجري على مقتضى سـنن إلهية خاصة تدخل في إطـار الاقتدار الإلهي على الخلـق والإبداع، دون تقيـد بنظام الكون العام الذي يسـيره قانون الارتباط العام بين عناصر الكون في سيرها.

وعند ذلك يجب اطراح الغرور العقلي، ووقوف العقل الإنسـاني عنـد حـدود مدركاته، وهـذا العقل عاجـز عن معرفة هوية نفسـه، وإدراك حقيقته، فهؤلاء الذين يؤلهون العقل الإنسـاني، ويعطونه ما هو فوق طاقته وحدود مدركاته أعجز في معرفة حقيقته، فتحكيمهم لـه في كل شـيء إلحاد علمـي، وتجاوز لمدى حدوده، لاسـيما في عوالم الغيب.

وإذا كان هذا العقل الإنسـاني فـي أقصى درجات مدركاته عاجزًا عـن معرفة حقيقة أبسـط الأمور التي تعيش بهـا ومعها الحياة كلها

فـي كل لحظـة من لحظات وجودها وسـيرها دون توقـف، فمؤلهو العقل البشـري أعجز منه عن إدراك حقيقة هذه البسائط التي تتكرر عشـرات آلاف المرات في كل يوم بل في كل ساعة فليقل لنا مؤلهو العقل البشـري بعد عجزهم عن معرفة ماهية هذا العقل: ما الحب؟ وما حقيقته؟ وما البغض؟ وما كنهه؟ بل ما الشـبع وما الجوع، وما السـعادة؟ وما الشـقاوة؟ ولنقرب بالسـؤال إلى ما هو من خصائص العقل البشـري فـي نظر مؤلهيـه، فليقولـوا لنا: مـا العبقرية، وما الـذكاء؟ ومـا البلادة ومـا الحياة؟ ومـا الموت؟ وما الـروح؟ وأين تكمن من الإنسان؟.

إن مؤلهي العقل البشـري أعجز من أن يجيبوا على سـؤال واحد من هذه الأسـئلة، ولكنهم يسـتطيعون أن يبرطموا بكلمات جوفاء خالية عن المحتوى يسـمونها فلسـفة، ولـن توصلهم هذه البرطمة وهذا التفلسف إلى شـيء من المعرفة، لأن جميع الأمور الشعورية، والوجدانيـة، والعاطفيـة، لا يعـرف العقـل - أي عقـل - حقائقها وهوياتها، وأقصى ما يسـتطيعه من المعرفة عنها أنه يشعر بآثارها، ويحس ببعض أوصافها فقط.

وإذا كان هذا شـأن العقل البشري في الأمور التي يحسها ويشعر بهـا؛ فكيف يكون حاله فـي الأمور الغيبية التي لا يراها ولا يشـعر بهـا ولا يحس بشـيء يتعلق بهـا؛ لأنها تقوم فـي وجودها على نوع من سـنن الله الخاصة التي قد تختلف قليـلًا أو كثيرًا في ظاهر الأمر عن السـنن العامة التي يقوم عليها ما يعرفه الإنسان من نظام الكون والحياة وترابط عناصرهما.

فـالله تعالـى الذي خلق السـنن العامة وربط بهـا عناصر الكون، وأقـام على دعائمهما نظام سـيره، وهو الذي خلق السـنن الخاصة

وربط عناصر الأحداث الخاصة التي تتطلبها مناسباتها - لا يحد قدرته شيء، فضلًا عمّا وصل إليه الإنسان من معرفة وعلم لا يمثلان قطرة في محيط ترابط عناصر الكون، وقد قال الله تعالى للمغرورين المغررين:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (الإسراء: ٨٥)

وهذا خطاب عام عموم الإنسان في أجياله وأطوار تفكيره، ولا يقيد هذا العموم ما قيل في سبب نزول الآية الذي لا يعدو أن يكون حادثة تدخل في إطار أحداث الحياة، فتأخذ من النص وصفها وحكمها.

ولكن الغرور الإنساني عند محدودي الدخل العلمي هو الذي يدفع بالإنسان إلى التعالي والبطر، فيزعم لنفسه ما ليس له بحق، ولكن الله تعالى في جلال قهره، وعزة رحمته يهدي من يشاء ويضل من يشاء، رضي المغرورون أم أبوا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

في هذا الإطار نذكر بعض الآيات الكونية التي خرجها الأئمة في كتبهم:

وحديثنا في هذا المجال مع الذين يؤمنون بسلطان اقتدار الألوهية الحقة، أما الذين يلحدون في آيات الله تقليدًا أو اغترارًا بما وصل إليه من نزيز العلم والمعرفة - فهؤلاء للحديث معهم أسلوب آخر، ومكان آخر، نرجو أن نوفق لتناوله في تفصيل يضع الحقائق في مواضعها.

في ضوء هذا الوضع نذكر بعض ما وقع من الآيات الكونية المعجزة في غزوة تبوك تشريفًا لهذا الكتاب، وتبركًا بما أفاضه الله

تعالــى على نبيه محمد ﷺ وعلى مجتمعه المســلم من هذه الآيات البينات التي لا ينكرها عقل مؤمن بجلال الاقتدار الإلهي، ولا يتنكر لهــا إلا من طمس الله علــى بصيرته وغطى الران علــى قلبه، وأعماه حــب العصرية ولقب التجديد، فاســتعبد عقلُــه إيمانَهُ، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

(الحج: ٤٦)

والــذي نذكره هنا من آيات الإعجاز الكونــي كان من قبيل آيات الرســالة ومعجزاتها التي لم يقع بها التحدي الذي استأثر به القرآن الكريم، ولكنه وقع تكريمًا لرســول الله ﷺ تشريفًا لقدره العظيم، وتنويهًا بمقامه المنيف، وغياثًــا للمجاهدين الذين أعدوا أرواحهم فداء لعقيدتهم، وكان الموقف قد تأزم بهم تأزمًا شــديدًا، ولا سيما فــي قلة الــزاد، وعدم الماء، وقد كانوا يتداولــون فيما بينهم التمرة الواحدة يمصها أحدهم ليشــرب على مصتها الماء، ثم يناولها أخاه ليفعــل بها مــا فعل، وقد أكلوا التمر المســوس... وفُقد الماء حتى كادت رقابهم تتقطع من شــدة العطش، وحتى كانوا ينحرون البعير ليشــربوا ما في كرشه حتى إذا نفد ما فيها من الماء كانوا يضعونها في أكبادهم.

حديث عمر عن الآيـة الكونية الأولـى من معجزات غزوة تبوك:

١- روى الإمــام أحمد، والحاكم، وابــن خزيمة، وابن حبان عن عمــر بــن الخطاب رضي الله عنه، قال: خرجنا إلى تبوك في يوم قيظ شــديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش شــديد حتــى ظننا أن رقابنا

ستنقطع ، حتى إن كان الرجل ليذهب ليلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر كرشه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا ، فادع الله لنا ، فقال رسول الله ﷺ : «أتحب ذلك ؟» قال أبو بكر نعم ، فرفع ﷺ يديه نحو السماء ، فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أي كساها السحاب - فأطلت ثم سكبت فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجدها جاوزت العسكر .

٢- روى ابن أبي حاتم عن جزرة قال : نزلت هذه الآية :

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الواقعة : ٨٢)

في غزوة تبوك ، ونزلوا بالحجر - أي ديار ثمود - فأمرهم ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئًا ، ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر ، وليس معهم ماء ، فشكوا إليه ﷺ ، فقام فصلى ركعتين ، ثم دعا فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها ، فقال أنصاري لآخر من قومه يُتهم بالنفاق : ويحك قد ترى ما دعا رسول الله ﷺ ، فأمطر الله علينا السماء ؟ فقال المنافق : قد مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الواقعة : ٨٢)

٣- وفي حديث محمود بن لبيد عن رجال من قومه عند ابن إسحاق ، قال كان رجل معروف نفاقه يسير مع رسول الله ﷺ حيثما سار ، فلما كان من أمر الحجر ما كان ودعا ﷺ فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، أقبلنا عليه ، نقول : ويحك ؟ هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة .

٤- روى البيهقي وأبو نعيم في دلائلهما، وابن إسحاق والواقدي: أن ناقته ﷺ القصواء قد ضلت، فلم يهتد إلى مكانها، فقال زيد بن اللصيت - وكان منافقًا من يهود بني قينقاع - فأسلم إسلام نفاق، إذ أجلى النبي ﷺ قومه عقيب غزوة بدر - وكان ابن اللصيت خبيث النفاق، جمع غش اليهود وغدرهم، وسيء حقدهم على رسول الله ﷺ وحسدهم له على رسالته التي بعثه الله بها للعالمين بشيرًا ونذيرًا، واضطغانهم على مجتمعه المسلم - أليس يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وكان ابن اللصيت ينزل في رحل عمارة بن حزم العقبي البدري، فقال رسول الله ﷺ وعمارة بن حزم عنده: «إن رجلًا يقول كذا وكذا» وذكر ﷺ مقالة ابن اللصيت التي أعلمه الله بها بالوحي «وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في الوادي، في شعب كذا، وكذا، قد حبستها شرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها» فانطلقوا فجاءوا بها ورجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: العجب لشيء حدثنا به رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل، أخبره الله بكذا وكذا، للذي قال الخبيث ابن اللصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة بن حزم - وصرح الواقدي أن ذلك الرجل أخو عمارة بن حزم -: زيد بن اللصيت والله قائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا، فأقبل عمارة بن حزم على زيد بن اللصيت يطعنه في عنقه، ويقول: يا عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، فاخرج يا عدو الله من رحلي ولا تصحبني.

مدة إقامته ﷺ بتبوك واختلاف الروايات في ذلك:

وقد أقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة في رواية ابن عقبة وابن إسحاق، وقال بروايتهما صاحب عيون الأثر، وخالف ذلك ابن سعد فعين مدة الإقامة، فقد أخرج عن يحيي بن أبي كثير أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين ليلة، يصلي ركعتين، وهو قول شيخه الواقدي، وذهب إليه ابن حزم، وأخرجه الإمام أحمد عن جابر.

ويظهر بشيء من التأمل أن هذا ليس بخلاف لأن البضع يقال في اللغة على ما فوق الثلاث إلى التسع، والتعبير عن ذلك بعشرين ليلة مما يمكن قبوله مع شيء من التجوز في التعبير، وجمع بعض العلماء بين الروايتين فقال: إن من قال عشرين ليلة حسب يوم القدوم ويوم الارتحال.

كانت غزوة تبوك مجالًا لإظهار قوة الإسلام:

وقد حقق ﷺ مقصده من هذه الغزوة على أكمل وجه، فأظهر قوة الإسلام بما حشد لها من جيش عرمرم وكتائب متكاثفة متأهبة، وبما كتب إلى قيصر، وهو هرقل، مرة أخرى يدعوه إلى الإسلام، وبما جرأ المسلمين على الروم، ونزع من قلوبهم تهيبهم لهم، وبما عقد من صلح وضرب من جزية على متنصرة العرب الذين كانوا يقيمون على مشارف الشام خاضعين لقوة الرومان وسلطانهم، وبما أرسل من سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة وأسره وفتح مدينته، وبما أعلن من عموم رسالته عمليًا، وبما كبت من حقد المنافقين وأحرق من أكبادهم، وأذل نفوسهم، وعاش من بقي منهم في ذل المهانة مطأطئ الرأس،

منكسـر القلب، يندب نفاقه، ويبكي معلميـه من خبثاء اليهود وطغاتهم.

عودتـه ﷺ إلى المدينـة مكللًا بتوفيق الله وإعزازه:

وعـاد رسـول الله ﷺ إلـى المدينة بأصحابـه موفـور المكانة، رفيـع المنزلـة، لم يلق في غزوتـه الخاتمة كيـدًا، ولا واجه حربًا، يحفـه العـز ويحيط به توفيق الله، بعد أن أرى أصحابه أن ما كان في أنفسـهم من تهيب للروم إنما هو خيال وهمي، موروث عن جاهلية ممزقة الروابط، لم يكن لها قبل الإسـلام نظام اجتماعي يسـلكهم فـي أنظمـة الأمم، كما أراهـم أن عمـوم رسـالته ﷺ يقتضيهم أن يخرجـوا بها إلـى هذه الأمم في أقطـار الأرض بعـد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومفارقتـه الدنيا بعد أن بين لهم حياتهم الإيمانية، وتركهم على بيضاء ليلها كنهارها، وأنهم صاروا بالإسلام ورسالته رادة للإنسـانية وقادة لمسـيرتها إلى حضارة مؤمنـة رحيمة عادلة، تحقيقًا لقول الله جل شأنه:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

ليحقـق الله تعالـى لهم وعده باسـتخلافهم فـي الأرض وتمكين دينهـم الذي ارتضـاه لهم، ولجميع عبـاده نظامًا شـاملًا، يوحد به كلمة الإنسـانية على أساس ما بين شـعوبها من ترابط أخوي مدعم بدعائم المواساة والتراحم.

وبهـذه الغزوة المباركـة ينتهي الحديث عن غـزوات النبي ﷺ التـي قادها بنفسـه، وفيما حققنـاه من رواياتها، وبيـان ما فيها من

معالم منهج الرسالة الخاتمة الخالدة، غنية عن الاسترسال في سوق الروايات الكثيرة التي أوردت أخبار السـرايا والبعوث التي كان ﷺ يرسـلها داعية إلى الله، مجاهدة في سـبيله، بيد أننا لم نخل البحث من الحديث عن بعض السرايا والبعوث التي رأينا في أحداثها نماذج لمعالم منهج الرسالة التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ، فكانت حياته المباركة هي منهج رسـالته التي جعلها دروسًـا لتربية أمته في أجيالها المقبلة.

من روائع أحاديث الوفود

اختلفت روايات مصادر المغازي، ومراجع السيرة النبوية، ودواوين الحديث وكتب الطبقات اختلافًا واسع المدى عريض الشقة في الدوافع الإيجابية لوفادة الوفود.

أولًا – بدء وفادة وفود بقايا القبائل التي كانت تتربص بدخولها الإسلام على النبي ﷺ بعد أن أداخ المجتمع المسلم سائر القبائل التي تمثل جمهرة العرب في كثرتها وكثافة رجالها، واعتزازها بقوتها المادية وتوافر وسائل التأهب والاستعداد لمواجهة كتائب الجهاد بقيادة النبي ﷺ لموقفها العدائي من الدعوة الإسلامية، خشية أن يجرفها تيار نمو المجتمع المسلم نموًا سريعًا، جعله متماسك العناصر، قوي البناء، شديد البطش على المعتدين المهاجمين له بقواتهم المادية التي لم يكن لهذا المجتمع ما يماثلها أو يقرب منها في مهد نشأته، وتكوين شخصيته التي أصبحت لها خصائصها ومميزاتها، حتى إذا شب هذا المجتمع في إطار هذه الخصائص والمميزات ونهض ليرد اعتداء المعتدين، تغيرت صورة الموقف تغيرًا كاملًا، فصارت تلك القوى المهاجمة للمجتمع المسلم ترعد فرائصها رهبة لملاقاة كتائب هذا المجتمع المجاهدة، ومواقفة تلك الكتائب في ميادين القتال، فكانت تبذل أقصى طاقتها من جهد لتجميع أضخم عدد، وأعظم حشد يمكنها الوصول إليه، مع أضخم أهبة وأعظم استعداد بالرجال والسلاح والمؤن.

وبذلك يتسنى لها توافر أعظم قوة مادية لتهاجم هذا المجتمع

لتستأصله وتسكت نأمته، وتقضي على حياته، لتبقي على وثنيتها البليدة، وشركها الخبيث مرتعًا تجول في حمأته، متدرعة بالظلم الاجتماعي والفجور الخلقي، والانغماس في أرذل شهوات الرذائل، لا يردعها قانون، ولا يصدها دين، ولا تمنعها عقيدة، ولا يكفكف من غرورها نظام اجتماعي يرد الظالم عن المظلوم، ويريح العدل في مكانه من ساحة احتكام الخصوم.

ولكن انتصارات المجتمع المسلم بقيادته العظيمة، ممثلة في سيد المرسلين محمد ﷺ كان دويها المرعب قد ملأ قلوب بقايا البطون العربية المشتتة بالفزع والهلع، مع تتابع هزائمهم أمام البعوث والسرايا التي كان يرسلها إليهم ﷺ في مضارب أحيائهم، مزودة بقوة الإيمان وهم يواجهون قوى الشرك المادية الضخمة، فتنحدر أمامهم مدحورة مهزومة على رغم الفوارق الهائلة في مظاهر القوة المادية التي كان يعتمد عليها المشركون والتي لم يكن لها مظهر قط في مواقف كتائب الجهاد المسلمة، فضلًا عن أن تكون مثل أو قريبا من قوى الشرك والوثنية.

قوة إيمان المجتمع المسلم كانت أقوى عوامل استجابة الوفود:

ولكن المجتمع المسلم كانت له قوة من طراز آخر غير كثافة الرجال وتوافر السلاح والمؤن، تلك هي قوة الإيمان، وحب الموت في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر دعوة الحق، وتبليغ رسالة الهدى والنور، وإزاحة العقبات من طريقها، فكانت تنزلات النصر المؤزر تترى متوالية متتابعة، وكان إيمان كتائب الجهاد يمدها بقوة الصبر

إلى جانب قوة الإيمان، حتى إذا امتحنت بشيء من البلاء الممحص تلقته بالصبر مع الإيمان، وسرعان ما يتكشف البلاء عن إشراقات النصر وتنزلات آياته من سماوات العزة الإيمانية.

فآمنت طوائفهم [من أهل الشرك] واستسلمت جموعهم، ووسعهم حلم رسول الله ﷺ، ورحمته، وقبل من أتاه منهم تائبًا مسلمًا، وضمه إلى المجتمع المسلم أخًا للمسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ولم يؤاخذهم بما كان منهم إليه من أسواء وأذى، وضمد جراحهم بإشفاقه ورأفته، ونشر بينهم مبدأ التسامح والعفو ونسيان الماضي بآلامه وكوارثه، فقال لهم ليمسح عن قلوبهم آثار الضغائن والمحن: «الإسلام يجب ما قبله».

ومن ثم انتقلت القوة المادية بانتقال كثافة عدد الرجال إلى قوة المجتمع المسلم الإيمانية التي كانت ولاتزال هي العماد القوي في انتصارات هذا المجتمع على أعدائه، وكانت ولاتزال هي الدعامة الأولى في انتشار دعوة الهدى والحق في آفاق العالمين في زمن لم يعرف مثله التاريخ لانتشار فكرة أو مذهب أو نحلة أو ملة أو دين، ما دامت قائمة في منهج تبليغ الرسالة ونشر الدعوة.

وبهذه القوة المزدوجة انفرد المجتمع المسلم، وهو يمر بمسيرته عبر تاريخ الحياة، وبهذه القوة الإيمانية فتح رسول الله ﷺ مكة حتى استسلمت، وسلمت وأسلمت، وكان أهلها متربَّصَ العرب بإسلامهم واستسلامهم، لأنهم كانوا أئمة الكفر، وأهل البيت المعظم عند كافة العرب قاصيهم ودانيهم، وهم الذين كانوا يواجهون المجتمع المسلم بقواهم المادية، ويهاجمونه عدوًا وبغيًا، حتى جاء الفتح الأعظم، ودانت

قريش لسلطان الإسلام طوعًا وكرهًا ، فأصبحوا جميعًا في قبضته محكوميــن بقهره ، خاضعين لحكمــه ، حتى أطلقهم أحرارًا بعد أن أداخهم المجتمع المسلم بقوة كتائبه المؤمنة المجاهدة .

وعندئــذ عــرف العــرب في أقطــار جزيرتهــم أنهــم لا طاقة لهم بمواجهة محمد رسول الله ﷺ ، وهو يقود مجتمعه المسلم من نصر إلــى نصر ، فلم يجدوا بــدًّا من الدخول في ديــن الله أفواجًا ، فجاءوه يطــوون الزمان والمكان وافدين إليه مــن كل وجه وحدب ، مبايعين مسلمين .

روى البخــاري من حديث عمرو بن ســلمة ، قــال : كانت العرب تــروم بإِســلامهم فتح مكــة ، فيقــول بعضهم لبعــض : اتركوه – أي رســول الله ﷺ – وقومه ، فإِنه إن ظهــر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كان الفتح الأعظم بادر كل قوم بإِسلامهم ، وبادر قومي بإِسلامهم .

واختــلاف الروايــات في زمن بدء الوفــادات العربية لا يحمل في طياتــه كبير معنى مــن معاني المنهج في الرســالة الخالــدة ، ولكنا عرضنــا له من باب التحذير من تكثيــر الروايات فيما لا يهم ، حذرًا أن يسبب تشكيكًا فيما يهم من الأمور الجوهرية .

رأي ابن حجر في ابتداء الوفود ومناقشته:

وزبدة الخلاف في تحديد زمن بدء الوفادات ، وقدوم الوفود على رســول الله ﷺ مستسلمة مســلمة هي كما قال ابن حجر في الفتح : والواقــع أن ابتداء الوفود كان بعــد رجوع النبي ﷺ من الجعرانة في أواخر ســنة ثمان ، وما بعدها ، بل ذكر ابن إســحاق أن الوفود كانت بعد غزوة تبوك .

أول من قدم وفد مزينة، يقدمهم خزاعي بن نهم:

ونحن نقول: إن ابتداء الوفود كان قبل سنة ثمان، وأنه على التحديد كان في سنة خمس من الهجرة، حيث قدم فيها على النبي ﷺ وفد مزينة، وكانوا أربع مئة رجل كما ذكره الواقدي بسنده فقال: حدثنا كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده، قال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربع مئة رجل من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، وقال لهم: «أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم» فرجعوا إلى بلادهم. ثم قال الواقدي: إن أول من قدم من مزينة خزاعي بن نهم، ومعه عشرة من قومه، فيهم بلال بن الحارث، والنعمان بن مقرن، وأبو أسماء، وأسامة، وعبد الله بن بردة، وعبد الله بن درة، فبايع خزاعي رسول الله ﷺ على إسلام قومه، ولما توجه إليهم لم يجدهم كما ظن فيهم، فتأخروا عنه، فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يعرِّض بخزاعي، وقال له: «اذكر خزاعيًا ولا تهجه» فقال حسان رضي الله عنه:

ألا أبلغ خزاعيًا رسولاً ... بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو ... وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكنت خيرًا ... إلى خير وأداك الثراء
فما يعجزك أو ما لا تطقه ... من الأشياء لا تعجز عداء

تعريض حسان بخزاعي كان سببًا في استجابة قومه.

و(عداء) اسم رهط خزاعي الذي هو منه في مزينة، فقام خزاعي في قومه فقال لهم: يا قوم، قد خصَّكم شاعر الرجل، فأنشدكم الله. فقالوا:

إنا لا نبوا عليك، فأسلموا، وكان لواء مزينة يوم الفتح الأعظم بيد خزاعي، دفعه إليه رسول الله ﷺ، وكانوا يومئذ ألف رجل، قال ابن سعد وخزاعي أخو عبد الله ذي البجادين.

بحث مع الحافظ ابن حجر فيما نقله عن ابن سعد:

ومما ينبغي الوقوف عنده قول ابن حجر عقب كلامه السابق: نعم، اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، ولم يظهر لنا مرجع اسم الإشارة في قول ابن حجر: اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، كما لم يظهر لنا مراده من قوله: اتفقوا، من هم المتفقون؟ كيف يصح قوله: اتفقوا على أن ذلك كله كان في سنة تسع، والخلاف مشهور متعالم عند أهل العلم، كما هو صريح في قوله: والواقع أن ابتداء الوفود كان في أواخر سنة ثمان بعد الرجوع من الجعرانة، وكما نقله عن ابن إسحق من أن الوفود كانت بعد غزوة تبوك.

أما قوله اتفقوا، فإن أراد به أصحاب الروايات من أهل المغازي وأرباب السير، فما ذكره الواقدي بسنده يرد عليه، وكذلك ما نقله ابن حجر نفسه عن ابن إسحاق، وكذلك ما ارتضاه وجزم به في قوله: الواقع أن ابتداء الوفود كان بعد الجعرانة في سنة ثمانٍ وما بعدها يناقضه، ولعل في عبارة ابن حجر غلطًا مطبعيًا.

وذكر ابن حجر عن ابن هشام أنه قال: حدثني أبو عبيدة أن سنة تسع كانت تسمى سنة الوفود، وهذا كلام قريب، يمكن قبوله لأن سنة تسع كانت سنة وفادة أكثر الوفود، فهي تسمى باعتبار الأغلب الأعم، ولا حرج في التسمية بهذا الاعتبار.

كلام ابن كثير في تقدم الوفود على فتح مكة:

وذكر ابن كثير أن محمد بن إسحاق، ثم الواقدي، والبخاري، ثم البيهقي بعدهم: أن من الوفود ما هو متقدم تاريخ قدومهم على سنة تسع بل وعلى فتح مكة، وقد قال تعالى:

﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ ﴾

(الحديد: ١٠)

وقال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية». فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين على زمن الفتح ممن يُعَدُّ وفوده هجرة، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله خيرًا وحسنى، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة.

وهذا الكلام يتفق مع ما ذهبنا إليه من أن بدء الوفود على رسول الله ﷺ كان قبل سنة ثمان، وقبل غزوة تبوك، بل قبل غزوة الفتح كالذي كان من المزنيين سنة خمس من الهجرة.

ولعل كثرة عدد أفراد وفدهم إذ كانوا أربع مئة رجل، جعلت رسول الله ﷺ يجعل لهم هجرة حيثما كانوا خشية أن يطول مقامهم بدار الهجرة، وهم عدد كثير، فيضيقوا على أهل المدينة عيشهم، ويزحموهم في مساكنهم ووسائل عيشهم ومصالحهم، لاسيما إذا تتابعت الوفود واستقر بعضهم في المدينة، ومن هنا نظن أن حديث «لا هجرة، ولكن جهاد ونية» مقيد بما يكنفه من ضرورات ومصالح.

نقد ابن كثير للأئمة الذين لم يستوعبوا الوفود:

ثم قال ابن كثير ناقدًا للذين عرضوا في مؤلفاتهم للوفود

وأحاديثها لعدم استيعابهم للوفود فيما ذكروه : على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود قد تركوا فيما أوردوه أشياء لم يذكروها ، ثم قال : ونحن نورد بحمد الله ومنّه ما ذكروه ، وننبه على ما ينبغي التنبيه عليه من ذلك ، ونذكر ما وقع لنا مما أهملوه .

ونحن نقول للعلامة ابن كثير : إنه من حق الحق عليه أن يضيف إلى قوله : إنهم قد تركوا فيما أوردوه أشياء لم يذكروها ، ما ينبغي أن يكمل هذا النقد ، فيقول : وأوردوا أشياء لم يكن ليحسن إيرادها ، ليدخل نفسه نَصَفًا لها وللحق وللأئمة الذين نقدهم ، وذلك كإيراده ما سماه وفد السباع ، وما سماه وفد الجن ، لأن الحديث الذي زعم فيه أن النبي ﷺ قال عنه : «هذا وافد السباع إليكم» لا وجه إطلاقًا لذكره في هذا المقام ، وإنما موضعه معجزات رسول الله ﷺ إذا صح سنده ، بدليل ما ذكره ابن كثير نفسه من أحاديث المعجزات النبوية في تكلم وتكليم ما ليس من شأنه التكلم والتكليم ، كالحيوانات ، وعذبات الأسواط ، وأشراك النعال ، وأفخاذ الرجال عقب حديث الذئب ، كحديث : عدا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبها الراعي فانتزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه ، فقال للراعي : ألا تتقي الله ؟ تنزع مني رزقًا ساقه الله إليّ ؟ فقال الراعي : يا عجبًا ؟ ! ذئب مُقْع على ذنبه يكلمني كلام الإنس ؟ فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ فقال الراعي : بلى ، قال الذئب : محمد رسول الله ﷺ بيثرب يخبر الناس بأخبار ما قد سبق ، فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زواياها ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ ، فنُودي : الصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للأعرابي :

«أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وتكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

قال ابن كثير معقِّبًا: هذا الحديث مرسل من وجه شعيب بن عبادة عن عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب، والمرسل عند الجمهور من قبيل الضعيف، ولكن ابن كثير قال في تعقيبة أخرى: ورواه الترمذي عن سفيان ابن وكيع بن الجراح عن أبيه، عن القاسم بن الفضل بهذا السند، والقاسم بن الفضل ثقة مأمون عند أهل الحديث، وثقه يحيى، وابن مهدي، ثم ذكر ابن كثير أن الإمام أحمد رواه من طريقين مختلفين، ثم قال عند الإسناد الثاني، إسناد أبي النضر عن شيوخه سياقه أشبه، وهو على شرط أهل السنن ولم يخرجوه. وصحة سند هذا الحديث لا تسوِّغ إخراجه في مقام وفود العرب.

أما حديث الجن فأمره أعجب وأغرب، ما كان يليق بعِلم ابن كثير وفضله وإمامته في الحديث وعلومه، ومعرفته بأحداث السيرة النبوية، ودقته في نقد الأسانيد والمتون أن يلم بهذا الحديث في هذا المقام من قريب أو بعيد، لأن ابن كثير نفسه طعن في صحته فقال: وقد أورد الحافظ أبو بكر البيهقي هاهنا حديثًا غريبًا، بل منكرًا، أو موضوعًا، ولكن مخرجه عزيز.

فابن كثير قضى على هذا الحديث، وانتهى في حكمه عليه إلى أنه موضوع مكذوب مختلق مفترى، ولكنه لعزة مخرجه أحب أن

يورده في غير مورد، متابعة للبيهقي، ثم قال ابن كثير: والعجب من البيهقي أنه قال في دلائل النبوة: باب قدوم هامة بن الهيم أو الأهيم بن لاقيس أو الأقيس بن إبليس على النبي ﷺ وإسلامه، ومعنى هذا أن هامة بن الهيم هو ابن حفيد إبليس لعنه الله تعالى، وقد عجب النبي ﷺ من شدة إيغاله في الدهر وقربه من إبليس، فقال له: «فما بينك وبين إبليس إلا أبوان؟ فكم أتى لك من الدهر؟» فلم يحر جوابًا صريحًا، ولكنه ذهب في متاهات الحياة وأحداثها منذ خلقها الله تعالى حتى بلغ بنفسه وهو غلام أنه شهد حادث قابيل وهابيل ابني آدم، وذكر إفساده في الأرض حتى قال له النبي ﷺ: «بئس عمل الشيخ المتوسم، والشاب المتلوم» ثم زعم أنه تائب إلى الله، كيف والله تعالى يقول:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ (الكهف: ٥٠)

ولم يستثن من ذرية إبليس في عداوة المؤمنين هامة بن الهيم، ولا غيره، فأنّى تكون له توبة؟ وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما –عند ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير نفسه في تفسيره: لا تدخل ذرية إبليس الجنة.

ولو أن ابن كثير أهمل قصة هامة بن الهيم حفيد لا قيس بن إبليس، وذكر مكانها قصة الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله ﷺ، وهو قائم يصلي بنخلة بعد عودته من الطائف محزونًا مهمومًا، فاستمعوا القرآن فلما سمعوه استنصت بعضهم بعضًا إعجابًا بما سمعوا من آيات الله، واستطعامًا لما فيها من حكم وأحكام،

وكانــوا على دين التــوراة، قيل إنهم من جن نصيبين، وقيل إنهم من جــن نينوى، وقيل: غير ذلك، فلما سـمعوا القــرآن من النبي ﷺ، وشــهدوا صلاتــه حتى إذا قضاها ولوا إلى قومهــم منذرين. وهذا هو الموافق لما كان عليه حال الوفود العربية - لكان موفقًا في سـياقته لأحاديث الوفود، وذكر هؤلاء الجن الذين وفدوا على رسول الله ﷺ بتوجيــه الله لهم وبعثهم إليــه أدخل في حديث وفــادات الوفود، إن كان لابــد مــن إدخال أحاديث الجــن في أحاديث الوفــود، لأن قصة هؤلاء الوافدين من الجن على رســول الله ﷺ وهو يصلي ببطن نخلة بعــد عودته من الطائف ثابتة بنص القــرآن، لا ينكرها مؤمن، وفيها من ســمات الوفادات ما يجعلها قريبة جــدًا من أحاديث الوفود التي عُقد لها في مؤلفات السيرة النبوية باب خاص، وقد أطنب ابن كثير في تفســيره وهو يســوق قصتهم وأكثر من الروايات وأقوال العلماء المختلفة.

وقــد تعلــل ابن كثير لذكره هــذا الحديث الموضــوع كما أورده البيهقــي بعــزة مخرجــه، ونحن نتســاءل متى كانت عــزة المخرج منهجًا علميًا يبيح ذكر الأحاديث الباطلة الموضوعة التي يفتتن بها كثيــر من أهل العلــم، فضلاً عن العامة؟ وهل ممــا يليق بمكانة ابن كثير أن يضع نفسه في موضع التقليد في رواية ما يعرف أنه موضوع مكذوب، لأنه عزيز المخرج؟ هذا مما كنا نرفع مكانة ابن كثير أن تنزل إليــه، وأبواب العلم والمعارف الصحيحة لا تنقضي عجائبها، وهــي مفتحة لكل طالب ليلج إليها مــن يريد التكثر وعزة المخارج بعيدًا عن الأباطيل والأكاذيب.

اختلاف الروايات في عدد الوفود :

ثانيًا - مما اختلفت فيه روايات مصادر السيرة عدد الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ للإسلام والبيعة، بعد أن تبين لهم أنه لا طاقة لأحد منهم بمواجهة المجتمع المسلم الذي يقوده محمد رسول الله ﷺ في ميادين المواجهة والقتال، وقد علموا أنه ﷺ أداخ بكتائبه الجهادية كبريات القبائل.

وخلاصة ما قيل في عدد الوفود ما قاله ابن حجر في الفتح إذ قال: وقد سرد محمد بن سعد في الطبقات الوفود وتبعه الدمياطي في سيرته، وابن سيد الناس اليعمري في عيون الأثر ومغلطاي، وزين الدين العراقي في منظومته، ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين، وقال الزرقاني في شرح مواهب القسطلاني الذي نقل كلام صاحب الفتح تعقيبًا على كلام ابن حجر: ومجموع ما ذكروه يزيد على الستين: ولا تبلغ السبعين على المتبادر من هذه العبارة عرفًا، وهذا التعقيب من الزرقاني مما لا وجه له، لأن ابن سعد وهو العمدة في عبارة ابن حجر في سرد الوفود أوصلهم في طبقاته التي في أيدي الناس إلى خمسة وسبعين وفدًا، وبعبارة ابن حجر التي نقلها القسطلاني في مواهبه، وعقب عليها شارحًا الزرقاني محتملة للعدد الذي ذكره ابن سعد، وما زاد عليه، فتفسيرها بأنها لا تبلغ السبعين كما قال الزرقاني تقييد لها ينفي عنها ما هو محتمل فيها.

حديث وافد السباع مكانه بين المعجزات :

وقد ذكر ابن سعد فيما سرده تفصيلاً وتبويبًا من أسماء الوفود وأحاديثها وأحداثها وافد السباع الذي بينا فيما سبق أنه - إذا صح

سنده - ليس له مكان في أحاديث الوفود العربية، وإنما مكانه في أحاديث المعجزات التي أوتيها رسول الله ﷺ تشريفًا لمكانه المنيف، وتكريمًا لقدره الشريف، ليزداد بها الذين آمنوا إيمانًا، ويدخل من بابها للتصديق بالرسالة من لم يكن أهلاً للنظر في الإعجاز الفكري والروعة الأسلوبية، وطرائق الهداية ومنازلها في آفاق الحياة وأطوارها الاجتماعية من كل ما استأثر به القرآن العظيم في إعجازه العام المتحدى به.

ومن ثم فإن هذه المعجزات الكونية لم يقع بها التحدي العام الدائم، وإنما ذلك كان حقًا للقرآن المجيد، فهو وحده الذي وقع به التحدي العام، وحمله في آياته باعتباره معجزة التحدي الوحيدة الدائمة الخالدة.

وإيراد ابن سعد لقصة وافد السباع بين أحاديث الوفود تَجَاوزٌ لمقصد الحديث عن الوفود، وإنما أُتي ابن سعد من قبل شيخه الواقدي، والكلام معروف مشهور فيه.

موقف ابن كثير أصعب من موقف ابن سعد :

وقد استهوى حديث وافد السباع العلامة ابن كثير - كما سبق لنا التنبيه عليه، ولعلنا نعود بتوفيق الله إلى الحديث عنه في مكانه من أحاديث الوفود - فرواه في تاريخه (البداية والنهاية) من طريق الواقدي بالسند الذي ساقه به محمد بن سعد، وكأن ابن كثير استشعر القلق في روايته هذا الحديث من طريق الواقدي، وإدخاله في أحاديث الوفود، فأراد أن يدعمه، فذكر معه أحاديث من أحاديث الخوارق الإعجازية في تكلم وتكليم الحيوانات للناس بكلام الإنس

كحديث الراعي الذي أخذ الذئب شاة من غنمه، فطلبها الراعي حتى انتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه وكلم الراعي، بيد أن ابن كثير ترك حديث الواقدي لمجرد روايته، ثم راح يعضد حديث الراعي مع الذئب بأسانيد عن الترمذي والإمام أحمد، ولكنها أحاديث تشعر ببعد وقوع أحداثها إلا عند ابتداء انفراط عقد السنن الكونية العامة التي قام عليها نظام الكون في مسيرة الحياة، وتحل محلها سنن خاصة تمهد لحياة جديدة هي حياة الدار الآخرة بقوانينها وسننها التي تغاير سنن الحياة، ويدل لذلك قول رسول الله ﷺ الذي ذكره ابن كثير عقب حديث الراعي الذي أراد ابن كثير من إيراده دعم حديث وافد السباع: «والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وتكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده».

فحديث وافد السباع ضعيف لضعف الواقدي، والأحاديث التي ساقها ابن كثير بعده صريحة كلها في أنها من آيات الله تعالى التي تقع أحداثها قرب قيام الساعة، ودخول نظام الكون العام في هذه الحياة الدنيا في طور انفراط عقد نظامه القائم على السنن الإلهية العامة التي تدخل تحت سلطان إدراك العقل الإنساني وقواعد العلم الكوني، وأصول المعرفة التي أقام الله تعالى على أساسها بسلطان اقتداره وقهره نظام الكون العام لتسير الحياة الدنيا على مقتضاه.

فلا وجه مطلقًا لإدخال حديث السباع في إطار أحاديث الوفود، كيف والعمدة في رواية هذا الحديث هو الواقدي، وضعفه وعدم الاعتماد على روايته إذا انفرد بها أمر معروف مشهور بين أهل العلم،

ويزيـد من ضعف إيراد هذا الحديث بين أحاديث الوفود ما عنون به ابن سـعد في طبقاته لأحاديـث الوفود، إذ قال: وفادات العرب على رسول الله ﷺ، فهل كان وفود الذئب، الذي تزعم رواية الواقدي أن النبي ﷺ سمَّاه وافد السباع من وفادات العرب؟

وإنمـا وقفنـا هـذا الموقف مـن ابن سـعد، وابن كثيـر في هذه المناقشـة لنبين للنـاس أن في مؤلفات الأكابر مـن أهل العلم الذين أخذوا حيزًّا من إطار المعارف الإسلامية بعض ما لا يحسن أن يكون فـي آثارهـم من هـذه المعارف، لاسـيما في مـوارد أحداث السـيرة النبوية ومساقات أحاديثها، وحذرًا أن يلم بما فيها من لم يكن هناك من شباب الإسلام وناشئي طلاب العلم، وحذرًا من أن يقع عليه نظر المتلقفيـن لهفوات المعـارف والعلوم فيتوهمها حقائق إسـلامية، يشـن بها غارة هوجاء على منهج الرسـالة الفكري، ويتخذها ذريعة إلى لون من النقد المشـنع قد يمس بعض قضايا الرسـالة ومنهجها في كثير من نواحيه، مما يفتح جدلاً في قضايا المنهج الفكري أمام الدعاة لنشر الدعوة، فيعوق مسيرتها في الآفاق العالمية.

ومـن هنا فإننا لا نمل التكرار، ولا نسـأم الإعـادة لدعوة صادقي الإخـلاص من أهل العلم إلى التشـمير للنهوض بالعمل الجاد لتنقية التراث الإسـلامي مما ألم به من (ميكـروب) الأوبئة الفكرية التي شـوهت معالم الرسـالة، ووقفت عقبة كئودا في أعصر الجمود أمام اندفاع تيار نشـر الدعوة وتبليغ الرسـالة أداء لحـق الوراثة النبوية، ومتابعة المسـيرة التي حمل لواءها حذاق العلماء من أئمة الإسـلام وسـلف الأمة الراسـخين في فهم أصـول الرسـالة وفروعها وحكم

أحكامهـا، ودقة نظمها الاجتماعية، وعدالـة أوضاعها الاقتصادية، ونقاء سياستها التربوية، واستقامة توجيهاتها السلوكية في الحياة.

قدمنا أن ابن هشام ذكر أن أبا عبيدة قال: إن سنة تسع من الهجرة كانت سـنة الوفود، وبينا تأويل ذلك بالحمل على الكثير الأغلب، لثبوت قدوم وفد مزينة ووفد هوازن وغيرهما قبل سـنة تسـع، وهذا الوصف لا يمكن أن يشـتهر بين العلماء لهذه السنة إلا إذا كان قدم فيها على رسـول الله ﷺ عدد من وفود العرب للإسلام والبيعة يملأ أحيازها بما يجعلها تستأهل هذا الوصف حتى كان خصيصة لها بين رواة أحاديث السيرة وأحداثها.

ونحـن على منهجنا في البحث لا نقصد إلى اسـتقصاء الروايات ولا نستهدف استيعابها، لكثرتها واشتمالها على الصحيح والسقيم من الوقائـع والأحداث، وفي هذه الروايـات الموجز المخل، وفيها المسـهب الممل الذي يستغرق فراغًا من البحث دون أن يكون فيه ما يحقق هدفنا منه.

هدفنا من هذه البحوث إبراز معالم منهج الرسالة في ضوء النقد الممحص:

وقـد قلنا مكررًا إن هدفنا من هذا البحث إنما هو إبراز الأحاديث التـي تحمـل فـي طياتها شـيئًا مـن معالم منهـج الرسـالة الخاتمة للرسـالات الإلهية، ليكون نبراس هداية للأجيال المتعاقبة مع مرور الحيـاة من المجتمع المسـلم أينما كان وكيفما كان لتتأسـى تلك الأجيال بهذه المعالم، وتتخذ ما فيها من توجيه إلهي وإرشاد نبوي، وتطبيـق سـلوكي، جمع لها تراثًا من الفكـر والعمل ما حقق للأمة

الإسلامية تاريخًا في قيادة الإنسانية وبناء حضارة إيمانية لم تعرف الحياة مثيلاً لها لغير هذه الأمة مدة استقامتها على منهج رسالتها.

والذين عنوا بذكر هذه الوفادات العربية على النبي ﷺ بعد انتصاراته المدوية كثيرون جدًا، وحسبنا أن نعلم من واقع المعرفة الإسلامية أن كل من ألف في السيرة النبوية ودوَّن أحداثها وجمع أحاديثها من القدامى على طريقهم في تجميع الروايات لم يغفل أحد منهم الحديث عن هذه الوفادات بين مقل مجحف، ومكثر مستنزف، ومتخير توسط فوفِّق.

بيد أنها في جملتها كانت تعوزها دقة البحث والنقد المميز بين الغث والسمين، وقيامها على دعائم البحث والتحقيق، وكانت أميل إلى النقد ومتابعة الخالف للسالف اعتمادًا على كثرة الحفظ والأسانيد، وكثرة الحفظ لم تكن قط في الحياة العلمية الإسلامية من موازين البحث والتحقيق، بل ربما كانت في أكثر أحوالها أبعد عن الضبط والتمحيص.

ومن ثم اختلفت مؤلفاتهم بين الإيجاز الرامز والإطناب المستطرد، وكان الإيجاز سمة ظاهرة في كتب أعلياء المحدثين، والمثل الحي على ذلك الصحيحان، فهما من أوجز مصادر السنة عامة، وباب الوفود خاصة، وكان الإطناب المستطرد ظاهرة كتب المغازي والطبقات، والتجميع للتكثر في الروايات.

تحقيق عدد الوفود في أشهر مؤلفات السيرة:

وقد تراوحت أعداد الوفود التي دونت رواياتها مفصلة مبوبة بين عشرة وفود - وهذا ما أمكن العثور عليه عند المقلين، ومن هؤلاء

صاحبا الصحيحين – وبين خمسة وسبعين وفدًا، وهذا ما ذكره محمد بن سعد في طبقاته، وأكثره كان من رواية شيخه محمد بن عمر الواقدي، وذكر ابن سعد في هذا العدد حديث وافد السباع، وقد نقدنا صنيعه في ذكر هذا الحديث بين أحاديث وفود العرب.

ثم مضى على الطريق طائفة من المؤلفين في السيرة، فتفاوتت أعدادهم للوفود، مع التقارب في العدد، فابن كثير ذكر في تاريخه (البداية والنهاية) عدد الوفود وأحاديثهم وأحداثهم، فبلغ بها الخمسين وفدًا، لكنه ذكر فيهم وفدي السباع والجن، فكان في ذلك متجاوزًا مقام الوفادات العربية، لأن حديث وفد السباع ليس له مكان في مقام الوفادات العربية، وإنما مكانه في باب المعجزات والخوارق الكونية، وحديث الجن – على ضعفه، بل بطلانه – مكانه عند تفسير قول الله جل شأنه:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ (الأحقاف: ٢٩)

وقد تخلف عن إطناب الواقدي على لسان تلميذه محمد بن سعد في الطبقات معاصره وقرنه في المغازي وروايات أحاديث السيرة وأحداثها محمد بن إسحاق، فذكر في سيرته التي وصلت إلى أيدي الناس بتهذيب الراوية الناقد ابن هشام من الوفود أقل قليلًا من نصف العدد الذي ذكره محمد بن سعد في طبقاته.

ولم يفت الإمام العلامة شمس الدين بن القيم ذكر الوفادات العربية في كتابه (زاد المعاد)، فذكر منها مبوبًا مفصلًا مع التعليق على ما عن له التعليق عليه لبيان فكرة لمحها فأراد إبراز اثنين وثلاثين وفدًا، وقد وقفنا معه عند ذكره لحديث وفد بني المنتفق، وكان متكلمهم لقيط بن عامر، أو ابن صبرة، وقد جاء في هذا الحديث تحاور للقيط مع النبي ﷺ في قضايا ومسائل لم تكن

من معارف ذلك العصر قبل الإِسـلام، لكن ابن القيم تحمس لها في حمية تشعر قارئها بشيء من العصبية الفكرية المذهبية، وسنعرض إن شـاء الله تعالى لبحث ذلك عند الكلام على حديث هذا الوفد في عرض ابن القيم له فيما ذكره من أحاديث الوفود.

ثـم جـاء اليعمـري فذكـر فـي عيـون الأثـر أحاديـث وأحداث ثلاثيـن وفدًا، فـكان قريبًا في العدد من ابن القيـم، وقد زاد عليهما القسطلاني في مواهبه، قليلًا فذكر من الوفود خمسة وثلاثين وفدًا، ذكرها مرقمة.

وقد ذكر الزرقاني في شرحه للمواهب القسطلانية تعليقًا فقال: وقد سـردهم الشـامي فزاد علـى مئة، فلعل الجماعـة اقتصروا على المشهورين أو الآتين لترتيب مصالحهم.

تأويل ما نقل الزرقاني عن الشامي في عدد الوفود:

ولـم نطلـع علـى كلام الشـامي فـي مؤلفـه، ولعل هـذه الزيادة الكبيـرة عند الشـامي في عدد الوفـود جاءت من قبل التسـاهل في عد قـدوم بعض الأفراد الوافدين وفودًا مسـتقلة، نحـو قدوم ضمام بن ثعلبة، بعثه قومه بنو سـعد بن بكر، وكان النبي ﷺ بعث إليهم يدعوهم إلى الإِسـلام، فبعثوا ضمامًـا ليتعرف لهم ما كتب به إليهم رسـول الله ﷺ، فلم يعد بعض ذاكري الوفـود قدوم ضمام بن ثعلبة وفدًا، كما أنهم لم يعدوا قدوم مسعود بن سعد الجذامي رسول فروة بن عمـرو الجذامي وفدًا، وكان فروة عامـلًا للروم على من يليه من العـرب، وكان منزلـه معان وما حولها من أرض الشـام، وكان النبي ﷺ كتب إليه يدعوه إلى الإِسـلام فأسـلم، وأهـدى للنبي ﷺ بغلة وفرسًا، وأثوابًا وقباء مذهبًا في أشياء أخرى، فقبل النبي ﷺ هديته،

وأجاز رسوله مسعود بن سعد باثني عشرة أوقية من فضة.

ولما علم الروم بإسلام فروة أخذوه وصلبوه على ماء يقال له: عفراء بفلسطين، ثم ضربوا عنقه- رضي الله عنه - على هذا الماء، وقد أبان عن قوة إيمانه بقوله حين قدموه ليقتلوه:

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي

ولم يعد قدوم فروة بن مسيك المرادي وفدًا، قال ابن إسحاق: وقدوم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ، مفارقًا لملوك كندة ومباعدًا لهم بعد أن أوقعت همذان بقومه بني مراد في يوم الردم حتى أثخنوهم، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، قال له رسول الله ﷺ: «هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟» فقال فروة: من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا يسؤه ذلك؟ فقال له ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرًا» ثم استعمله ﷺ على مراد وزبيد ومذجح، وأرسل معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان خالد بن سعيد معه حتى توفي رسول الله ﷺ.

والذين ذكروا قدوم بعض الأفراد موفدين من أقوامهم إنما ذكروهم بعنوان القدوم، لا بعنوان كونهم وفدًا، لأن المنفرد - كما يقول الزرقاني - لا يعد وافدًا عرفًا، وإن عد لغة، وبعض المؤلفين في السيرة لا يتقيد بتعبير لفظ (وافد)، وقد يعبر عن الجماعة الوافدة بلفظ (قدم) كما وقع للقسطلاني في مواهبه، فذكر وفد الأشعريين وأهل اليمن بلفظ (قدم)، فقال تحت عنوان الوفد الثامن: وقدم عليه - أي رسول الله ﷺ - الأشعريون وأهل اليمن.

وقد قدمنا أن احتمال أن الشامي ذكر كل من قدم على رسول الله ﷺ وافدًا من قومه أو رسولًا بلفظ وفد، سواء أكان فردًا

أو جماعـة، وهـذا ممـا يتسـامح فيه، لأنـه لا يترتب عليـه ما يغير المقصود.

وقـد قدمنا أننـا لا نقصد إلى اسـتقصاء الروايات واسـتيعابها، وسـنقتصر فـي بحثنـا على اختيـار بعض الوفـود ممـن نلمح على رواياتهم شـيئًا من معالم منهج الرسالة التي نقف عندها مستوحين ما يتنزل من سماواتها من آيات عقلانية ودروس تربوية، وتشريعات حكيمة، وأنظمة اجتماعية، وآداب إنسانية، وفضائل خلقية أريد بها أن تكون عنوانًا على عموم منهج الرسالة، ومنارًا لهدايتها، ونماذج من قصص من نلمح في قدومهم لوامع من المنهج الإسلامي.

فجور عامر بن الطفيل وخذلان الله تعالى له:

قدمنـا الحديث على وفـد مزينة، وعلى وفد هـوازن، وعلى وفد ثقيف في مناسـباتها التي اقتضت الحديـث عنها، وبينا في حديث كل وفد منها ما اقتضاه المقام من تعليق يبرز ما فيه من معالم منهج الرسالة، كما قدمنا شيئًا عن قدمة عامر بن الطفيل في وفد قومه بني عامر، الذين شعروا أنه يضمر غدرًا بالنبي ﷺ فقالوا له: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم، فأبى عليه فجوره وغروره وشراسة كفره أن يدخـل فيما دخل فيه الناس من الهدى، وقال لقومه: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟ ثم توافق مع قرنه في الفجور ولؤم الكفر، أربد ابن قيس أخي الشاعر لبيد بن ربيعة لأمه، على الغدر برسول الله ﷺ، ومكرا ومكـر الله والله خيـر الماكرين، وباءا بالخيبـة والخزي والخذلان، وعصـم الله تعالى رسـوله ﷺ من كيدهما، ولمـا رأى عدو الله عامر بـن الطفيـل ما حل بـه وبقرنه في الفجور من الفشـل فـي مكرهما

قال يتوعد رسـول الله ﷺ بأكذوبة الغـرور الأجوف: «والله لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا» ثم ولى مسـتكبرًا فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل» وخرج عامر وقرنه أربد حتى إذا كانا ببعض الطريق رمى الله عامرًا بالطاعون، وبرزت له غدة كغدة البعير وهو في بيت امرأة من سـلول، فقتله الله أبشع قتلة وأماته أشنع ميتة، وجعل يندب نفسـه ويقول: غدة كغـدة البكر، وموت في بيت سـلولية؟
قال السـهيلي: عند غير ابن إسـحاق أن عامرًا - لعنه الله - لما رأى فشـله في مكره قال في وعيده: «لأملأنها عليك خيلًا جردًا ورجالًا مردًا، ولأربطن بكل نخلة فرسًـا» فجعل أسيد بن حضير يضرب في رؤسهما ويقول: اخرجا أيها الهجرسان، فقال له عامر: ومن أنت؟ فقال أسـيد بن حضير، فقال عامر: أحضير بن سـماك؟ قال: نعم، فقـال عامر: أبوك كان خيرًا منك، فقال له أسـيد: بل أنا خير منك ومن أبي، لأن أبي كان مشركًا وأنت مشرك.

وكان وفد مزينة أكبر الوفود عددًا، وأقدمهم زمنًا، ثم وفد هوازن ثم وفد ثقيف.

قدوم أول وفد لبني تميم

وقد أشار القرآن الكريم إلى قدومهم إشارة واضحة، فذكر ما كان منهم من جهالة وحماقة أجمع المفسرون على أنهم هم المقصودون بآيتها، فقال الله تبارك وتعالى خطابًا لرسوله ﷺ ليخفف عنه شدة ما آذوه به من سوء الأدب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات: ٤)

ثم أبان عن طيشهم وسفاهة جهلهم، وأنهم قوم يستحوذ عليهم النزق وخفة الأحلام، لا يعرفون الأناة خلقًا، ولا التحلم تخلقًا، فقال جل شأنه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ٥)

فهم جُفاة لا يعرفون مواقع لقاء العظماء، الذين يجب توقيرهم عند طلب لقائهم للتحدث إليهم والحديث معهم ومخاطباتهم.

فالمناداة بمجردها تقتضي - عرفًا - الشعور والإشعار بالتباعد والنفرة، ويصحبها جهالة المنادي مكانة المنادَى، وعدم استحضار ما يستحقه من التوقير والتعظيم فوق ما يستحقه سائر الناس من الخاصة والعامة، كما يصحبها رفع الصوت مع الصخب وقلة المبالاة، وعدم عرفان أدب الخطاب مع المنادَى.

وكون النداء من وراء الحجرات يشعر بعدم رعاية الأدب العام الذي يجب أن يسود مخاطبات الناس والتحدث إليهم والتحدث معهم، كما يشعر أيضًا بالجهالة الجافية، والجفوة الجاهلة التي تسدل على العقل أستارًا كثيرة من ظلمات الحماقة، والحماقة توأم

الجنون، ومن ثَم جاءت الآية في خاتمتها بتسجيل هذا الوصف على أولئك الحمقى، فقالت:

﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

والمتأمل في هذا التعبير يستشعر من حنايا دقته صورة للإنصاف والمعدلة؛ لأن هؤلاء المنادين للنبي ﷺ من وراء حجراته لم يخل جمعهم من أفراد حصَّنهم العقل بشيء من رفيع الأدب، وحياء التخاطب، فأخرجوا من إطار سفه الحماقة وسوء الأدب في التخاطب، تمييزًا لهم بما تحلوا به من خلق أبعدهم عن مشاركة الحمقى الجفاة في وصفهم الذي دُمغوا به في الكتاب العزيز.

ثم بيَّن الله تعالى أن هؤلاء الحمقى قد أعمى الجهل الجافي أبصارهم وبصائرهم، فلم يدركوا أولى بَدَائِه العقل في موقفهم الطائش؛ لأن العقل يقتضي حسن الأدب، ومعرفة قدر النبي ﷺ، وما ينبغي له من تعظيم وتوقير، ولا سيما أنهم - كما في بعض الروايات - جاءوه وقت القائلة وهو ﷺ نائم ليستريح قليلًا، ثم يخرج إلى أصحابه للصلاة بهم، فقال الله لهم بأسلوب الغيبة إنزالًا لهم عن مرتبة شرف الخطاب:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ ﴾

ومعناه: ولو أنهم اعتصموا بالصبر، فتفادوا حماقتهم الجافية في مناداتك من وراء حجراتك، حتى آذوك بصياحهم وصخبهم جهلًا بمقامك وقدرك ﴿ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ ﴾ في موقفهم، وتحقيق ما جاءوا يبغونه من رسول الله ﷺ من إطلاق سبيهم والمن عليهم، وإفضال الله تعالى عليهم.

ثم تفضل رب العزة جل شأنه - وهو أهل الفضل والمن بعد هذا الدرس التهذيبي في مكارم الأخلاق - ففتح لهم باب الرجاء في رحمة

الله التي وسعت كل شيء، فقال في خاتمة هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لـزلات عباده، متجاوز عـن هفوتهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، يستنقذهم بجود إحسـانه من شراك الخطيئة، ويسبغ عليهم من سحائب فضله ما يطهرهم من أدران ما اقترفوه من الإثم.

وفـي قولـه تعالـى: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ عتـب متلطف للذيـن تركـوا الأمر لمن لم يحسـنه، بمـا تضمنه من إشـارة إلى ما يجـب على الجماعة المترابطـة من التكافل في مهـام أمورهم اتقاء المزالق ولا سيما في أدب الخطاب، وأن يكون عند العقلاء ما يردع أهل السفه والحمق من وسائل التفاهم، ليرد المحسن على المسيء بالقـول أو الفعـل، أو الإشـارة المفهمـة، أو الإيمـاءة الرامزة. وقد كان فـي هذا الجمـع كما قلنا مَن كان يُعد مـن خاصة عقلاء العرب وحلمائهـم الحكماء، وذوي رأيهم الذيـن تُحل بهم المعضلات من أضراب قيس بـن عاصم المنقري الذي كان يُضرب بحلمه ورجاحة عقلـه المثل، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ في قدمته - كما رواه ابن سعد بإسناد حسن - : «إنه سيد أهل الوبر».

وفـي رواية أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال للأحنف بن قيـس - وهـو أحد حكماء العـرب وحلماء الإسـلام - ممن تعلمت الحلـم؟ قال: مـن قيس بن عاصم، رأيته أُتـي برجل مكتوف، وآخر مقتـول، فقيـل: هذا ابـن أخيك قتل ابنـك، فالتفت إلـى ابن أخيه فقـال: يا بن أخي، بئس ما فعلت، أثمـت بربك، وقطعت رحمك، ورميت نفسك بسهمك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني وحل كتاف ابن عمك، وسق إلى أمه مئة ناقة دية ابنها، فإنها غريبة.

وهــؤلاء القوم لم يقدموا على رســول الله ﷺ ليســلموا ويبايعوا كما كان شــأن ســائر وفــود العرب ، ولكنهــم قدموا لفداء ســبيهم وذراريهم ، فدخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : يا محمد ، يا محمد ، اخرج لنا ، فمدحُنا زين ، وذمنا شين ، فقال لهم رســول الله ﷺ : «ذاك الله إذا مدح زان ، وإذا ذم شــان ، إني لم أُبعث بالشعر ولم أُومر بالفخر».

سبب قدوم أول وفد من تميم وتأديب قومهم على يد مَن ليس منهم، ثم انزلق فكان منهم:

وكان عــدد القــوم كثيرًا يربون على الســبعين ، فيهم عشــرة من أشرافهم وذوي رأيهم ، منهم : عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، والقعقاع بن معبد ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم ، وأضرابهم .

وذكر ابن كثير عن الواقدي أن سبب قدومهم أنهم كانوا قد جهزوا السلاح وتأهبوا لغزو خزاعة بغيًا وعدوًا ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث إليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلًا ، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري ، فكان يســير الليل ويكمــن النهار ، فهجم عليهم حتى ولوا مدبرين ، فأخذ منهم أحد عشر رجلًا ، فلما قدم بهم المدينة أمر بهم رسول الله ﷺ فحُبسوا في دار رملة بنت الحارث .

تصدي تميم لمصدقي النبي ﷺ في أموال خزاعة:

وفي رواية عن الواقدي وأيضًا عن الزهري أن ســبب البعث إليهم أنهم غاروا على ناس من خزاعة لما بعث إليهم رســول الله ﷺ بشــر بن أبي ســفيان العــدوي الكلبي ، يأخذ منهم الصدقــات ، ونهاه عن كرائــم أموالهم ، وقيل إنه بعث النحــام العدوي فجمعوا له ما طلبه ،

فاستكثره بنو تميم وقالوا: ما لهذا يأخذ أموالكم بالباطل؟ فشهروا السيوف في وجه خزاعة، فقال لهم الخزاعيون: نحن مسلمون، وهذا أمر ديننا، فقال التميميون: لا يصل إلى بعير منها أبدًا، فهرب بشر بن أبي سفيان رسول النبي ﷺ لأخذ صدقة خزاعة ورجع إليه ﷺ، وأخبره الخبر، فوثبت خزاعة على التميميين فأخرجوهم وقالوا لهم: لولا قرابتكم ما وصلتم إلى بلادكم، ليدخلن علينا بلاء من محمد ﷺ حيث تعرضتم لرسوله، تردونه عن صدقات أموالنا؟! فخرجوا راجعين إلى بلادهم، فقال ﷺ: «مَن لهؤلاء القوم؟» فانتدب أول الناس عيينة بن حصن، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوا جمعه ولوا هاربين، وأسر منهم رجالًا، وعاد بهم إلى المدينة المنورة، فقدم فيهم عدد من بني تميم يتقدمهم بعض من رؤسائهم وأشرافهم، ودخلوا المسجد ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته حتى آذوه بصياحهم الأحمق، وطيشهم الأخرق، وخروجهم عن حدود ما يجب له ﷺ من التوقير والتعظيم، فخرج ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وتعلق أولئك الجفاة برسول الله ﷺ يكلمونه، فلما فرغ من الصلاة، قاموا فقالوا له صلوات الله عليه: يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لخطيبنا وشاعرنا، فقال عليه الصلاة والسلام «قد أذنت لخطيبكم فليقل»، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فقال:

الحمد لله الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق، وأكثره عددًا وأيسره عدة.

فمن مثلنا في الناس؟! ألسنا برءوس الناس، وأولي فضلهم؟ فمَن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشأ لأكثرنا الكلام، ولكنا نخشى من الأكثر فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا.

فقال رسول الله ﷺ لخطيبه ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري – وكان مفوهًا فصيحًا عليمًا بمقامات الكلام، قوامًا بالكلمة الفاصلة – : «قم يا ثابت فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت، وبين شدقيه لسان قئول، وفي حنايا صدره قلب عقول فقال:

الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، وسع كرسيه علمه، لم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خيرته رسولًا، أكرمهم نسبًا، وأفضلهم حسبًا، فأنزل عليه كتابًا، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالًا.

ثم كان أول الناس إجابة واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله وأستغفر الله لكم وللمؤمنين والمؤمنات.

نظر وتأمل في منهج الخطيبين:

ونظرة متأملة في الخطبتين تكشف عن الفوارق الفكرية بينهما، وهي فوارق تنبع من معين البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الخطيبان، فعطارد بن حاجب خطيب تميم نشأ في بيئة بدوية مغلقة النوافذ عن نسيم الحياة الفكرية المتحضرة، مسدودة الأبواب عن

أيٍ نظام اجتماعي مترابط، يربط الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد، ربطـا يقوم على دعائم من العدل والحكمـة، فهي بيئة محجوبة عن شـمس الهدايـة وضوئها بركام من سـحاب الجهالـة، لا تعرف من مفاخر الحياة إلا المـال، تتفاخر بكثرته، وتتباهى بأنواعه، وتتعزز برؤيتـه، بيئة لا تعرف عقيدة، ولا تعتصـم بدين، ولا تئول تربيتها إلى قانون أو نظام سياسـي يقيم موازين العدل بينهم، وينشـر الأمن والاستقرار فيهم.

وهـذه كلهـا أمور موضعيـة في بيئة قفـراء مجدبـة، تعيش على الغـارات للنهب والسـلب وسـفك الدمـاء، ليأكل الذين يعيشـون فيها من سـائمات الإنسـانية كما تأكل الأنعـام، دون أن يكون لهم وراء ذلـك هدف إنسـاني أو مطمع في خير، بيئـة تفكيرها حماقة، وعلمهـا جهالة، ودينها ضلالة، وحلمها سـفاهة، وسـعيها مثبور، وأمنها مبتور، وحماها مشـرع مورود، تحكمها الحماقات الهائجة والثارات المسعورة، والنفوس الموتورة

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

يشـترون الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، والسفاهة بالحلم، والحماقـة بالعقل، والأمن بالخوف، والعزة بالذلة، وفي ذلك كانت مفاخرهم، وشـموخ معاطسهم، وبطر أنفسهم، لا يقبلون الخير إلا وهـم كارهون، ولا يردون موارد النور إلا وهم عن إشـراقها أعشـياء لا يبصرون، يحسـبون نمير الحق سـرابًا ينتشـر في آفاق الشـعاب والأودية، تسـوقهم شياطين الغرور ومردة الفجور إلى حتوفهم وهم لا يشـعرون، اسـتحبوا العمى على الهدى، فكانوا فـي ضلالاتهم

أخسر الأولين والآخرين صفقة، إلا من عصم الله فاهتدى بهدى الله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

أما خطيب رسول الله ﷺ ومتكلم المجتمع المسلم ثابت بن قيس الأنصاري فكان في حكمته الأسلوبية، وبراعته اللسانية، وسياسته الجوابية ومعرفته بمواقع الكلمة النافذة في مقامها لتصيب المحز، وتطبق المفصل، كأنه يقرأ صحائف من نور الهداية البالغة في منازلها من النفوس الواعية.

فبدأ بحمد الله على عظمة خلقه، ونفاذ أمره، مبينًا أن ما فخر به أولئك الجفاة من كثرة المال ووسيع الثراء إنما هو من نعم الله وفضله، ونعمه تعالى تستوجب شكره، والإيمان به إلهًا واحدًا، لا ند له ولا شريك في ملكه وملكوته، وأنه تعالى اصطفى من خيرته رسولاً، خصه من فضله بما لم يعط خلقه مثله، وأنه حمله أمانة رسالته الخاتمة، فكان بها خيرة الله من العالمين، وأنه دعا الناس قاطبة إلى الإيمان به رسولاً، فأقبل عليه صفوة الخلق من المهاجرين، وذوي القربى وهم أكرم الناس معادن، وأشرفهم في منازل الإنسانية أحسابًا، وأمجدهم في فواضلها فعالاً، ثم قفى على أثرهم أنصار الله وأنصار رسوله ووزراؤه، فكانوا أخلص من دُعي إلى الهدى، فأجاب داعي الله وآمن ونصر وآزر، وآوى وآثر.

ومن هؤلاء وهؤلاء أقام رسول الله ﷺ مجتمعه المسلم الذي حمل لواء الدعوة إلى الله، ورفع رايات نشر الرسالة خفاقة في الآفاق، يدعون الناس إلى الإيمان بما جاءهم من الحق والهدى.

ثم ختم خطيب رسول الله ﷺ خُطبته بما أرغم به الشيطان، وكبح به جماح الغرور بهضم نفسه، والاستشعار بالقصور في القيام

بحق العبودية لله وحده، فقال: وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. وهذه إحدى الروايات في نص الاستغفار الذي ختم به خطبته.

وهذا الاستغفار لنفسه رضي الله عنه ثمرة من ثمرات الإيمان والعلم بجلال الله في وحدانية ألوهيته وربوبيته، وفيه إشعار لهؤلاء الجفاة أن أول الحقوق هو حق الله على عباده بإخلاص الإيمان بجلال وحدانيته وإفراده بالعبودية له بجميع أنواعها ومظاهرها، وفي ذلك تلميح بتبكيتهم ما ارتضوه لأنفسهم من ضلال أحمق وجفوة خرقاء، وهذا الاستغفار الذي جاءت به هذه الرواية لهؤلاء المتسورين بنداء سيد المرسلين من وراء الحجرات كان من قبيل الاستئلاف واستمالة القلوب للدخول في الإسلام، وهذا لا ينافي أن يكون من قبيل الدعاء لهم بالهداية تأدبًا بأدب النبوة الرحيمة، على حد قوله ﷺ في غزوة أحد وقد آذاه المشركون من قومه أبشع إيذاء: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وقد تأول العلماء طلب المغفرة لهم -وهم ليسوا بأهلها- بالهداية، فكأنه قال صلوات الله عليه: «اللهم اهدِ قومي» وقد وردت الرواية بلفظ «الهداية»، فكان حمل رواية «اغفر» على معنى «اهد» أولى في الجمع بين الروايتين من ترك إحداهما.

وأما الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فهو على ظاهره؛ لأن العبد لا يخلو عن هفوات وتأثمات، ويحتمل أنه دعاء لهم أن يحجب الله عليهم الإثم أو يحجبهم عن الإثم، فلا يلحقهم شيء منه إبقاء على طهرهم، وصفاء إيمانهم، ونقاء إخلاصهم.

وفي تفسير أبي حيان المسمى (بالبحر المحيط) نص لخطبة

خطيب رسول الله ﷺ ثابت بن قيس، يختلف عن النص الذي أورده ابن إسحاق ومن تابعه في روايته للقصة وأحاديثها وأحداثها، ونحن نورد هذا النص عن البحر لأبي حيان، قال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمه، أحسن الناس وجوهًا، وأعظمهم أحلامًا فأجابوه.

والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه، ووزراء رسوله، وعزًا لدينه. أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ونحن أمْيَل أن هذا النص الذي لم يذكر له أبو حيان سندًا ولا مخرجًا أرجح وأقرب إلى معالم الهداية الإسلامية في أسلوبه ومعانيه.

ثم أذن رسول الله ﷺ لشاعر القوم، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد- كما يقول محمد بن إسحاق-:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا   منا الملوك وفينا ينصب البيع

وفي رواية: وفينا تقسم الربع.

وكم قسرنا من الأحياء كلهم   عند النهاب وفضل العز يتبع

وقد أنكر ابن هشام أن تكون هذه (العينية) من شعر الزبرقان، وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله ﷺ غائبًا، فبعث إليه رسول الله ﷺ قال حسان -رضي الله عنه-: جاءني رسول رسول الله ﷺ فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم، فقال ما قال أعرضت له في قولي وقلت على نحو ما قال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يتبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
إن سابقوا الناس يومًا فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا

في أبيات تقرب في عدتها من أبيات القصيدة المنسوبة للزبرقان التي أنكرها ابن هشام، ولم يعلق ابن هشام على أبيات حسان، وهي على روي وبحر قصيدة الزبرقان ومعارضة معانيها، مما يدل على صحة نسبتها لحسان بن ثابت رضي الله عنه أو نسبة بعضها له، وأدخل فيها من الشعر المنحول ما أدخل، وهذا ظاهر في تفاوت معانيها، وانسجام أسلوبها، وإذا صحت النسبة إلى حسان، ولو لبعض الأبيات صحت نسبة بعض أبيات قصيدة الزبرقان له أو لغيره من قومه.

قال ابن هشام: وأخبرني أهل العلم بالشعر من بني تميم أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن ... وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

وهذان البيتان اللذان نسبهما ابن هشام للزبرقان بن بدر نسبهما أبو حيان مع شيء من التلفيق إلى الأقرع بن حابس، قال أبو حيان بعد أن أورد أبياتًا من قصيدة حسان الرائية: «نصرْنا رسولَ الله والدينَ عنوة»، فقام الأقرع فقال: إني والله قد جئت لأمر، وقد قلت شعرًا فاسمعه -يريد رسول الله ﷺ- ثم أنشد:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وأنَّـا رءوس الناس في كل غارة تكون بنجد أو بـأرض التهائم

ثم ذكر أبو حيان بيتًا ثالثًا ملفقًا فقال:

وأنَّـا لنا المرباع في كل معشر وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارم

فقال النبي ﷺ لحسـان: «أجبه»، فأجابه حسان بأبياته الميمية التي يقول فيها:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يصير وبـالًا عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خـدم مـن بين ظئر وخـادم

فقـال النبـي ﷺ: «لقد كنـتَ غنيًا يا أخـا دارم أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد نسوه»، فكان قوله ﷺ أشد علَيهم من جميع ما قاله حسان رضي الله عنه.

ثم ذكر أبو حيان بيتَيْ حسان رضي الله عنه:

فإن كنتمُ جئتم لحقن دمائكم وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فـلا تجعلوا لله نـدًا وأسلموا ولا تفخروا عند النبي بـدارم

فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر؟ تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسـن قولًا، وتكلم شـاعرنا فكان شـاعرهم أشعر وأحسـن قولًا، ثم دنا الأقرع من رسول الله ﷺ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: «ما يضرك ما كان قبل هذا» ثم أعطاهم وكساهم استئلافًا لهم، ولم يكن ذلك من قبيل الجوائز.

ثم قام حسان رضي الله عنه، فقال:

نصرنا وآوينـا النبيَّ محمدًا على أنف راضٍ من معد وراغم

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبـالًا عند ذكـر المكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

فـلا تجعلوا لله نـدًا وأسلموا ولا تلبسوا زيًـا كـزي الأعاجم

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمُؤْتًى له!! لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره

أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ! !

ثم قال ابن إسحاق: فلما فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

سياق قوله ﷺ إن من البيان لسحرًا :

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه (البداية والنهاية) أن الحافظ أبا بكر البيهقي روى بسنده من طريق يعقوب بن سفيان، عن محمد بن الزبير الحنظلي، قال قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم، فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم: «أخبرني عن الزبرقان، فأما هذا -أي قيس بن عاصم- فلستُ أسألك عنه». قال راوي الحديث: وأراه قد عرف قيسًا، فقال عمرو بن الأهتم يصف الزبرقان: مطاع في أدنَيْه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: قد قال ما قال وهو يعلم أني أفضل ممَّا قال، فقال عمرو بن الأهتم: والله ما علمتك إلا زمر المروءة، ضيق العطن، أحمق الأب، لئيم الخال، فرُئِي عدم الرضا في وجه رسول الله ﷺ: فقال عمرو بن الأهتم: يا رسول الله، قد صدقت فيهما جميعًا، أرضاني فقلت أحسن ما علمت، وأسخطني فقلت بأسوأ ما أعلم، فقال ﷺ: «إن من البيان سحرًا».

قال ابن كثير: وهذا مرسل من هذا الوجه، قال البيهقي: وقد رُوي من وجه آخر موصولًا، ثم روى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جلس إلى رسول الله ﷺ قيسُ بن عاصم والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم التميميون، ففخر الزبرقان، فقال: يا رسول الله، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم،

وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا -أي عمرو بن الأهتم- يعلم ذلك، فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدنيه، فقــال الزبرقــان: والله يا رســول الله، لقد علم مني غيــر ما قال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو بن الأهتم: أنا أحسدك؟ فوالله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مضيع في العشيرة، فرُئي في وجه رســول الله ﷺ عدم الرضا لاختلاف القول في شخص واحــد، وزمن واحد ومكان واحــد، فقال عمرو بن الأهتم وقد عرف الإنكار لقوله في وجه رسول الله ﷺ: والله يا رسول الله، لقد صدقتُ فيمــا قلتُ أولًا، وما كذبتُ فيما قلت آخرًا، ولكني رجل إذا رضيتُ قلتُ أحســن مــا علمــتُ، وإذا غضبتُ قلت أقبح مــا وجدت، ولقد صدقــتُ فــي الأولى والأخــرى جميعًا، فقال رســول الله ﷺ «إن من البيان سحرًا»، قال ابن كثير: هذا إسناد غريب جدًا.

مناقشة قول ابن إسحاق: «فلما فرغ القوم أسلموا وجوزوا»:

قصة قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ وفيهم من أشرافهم جماعة مُسَــمَّون من خــلال الروايات واضح فيه أن ســبب قدوم هذا الوفد لم يكن قط الدخول في الإســلام، ومبايعة رســول الله ﷺ كما كانت تســتهدف ذلك سائر وفود العرب التي ضربت إليه ﷺ آباط الإبل بعد غزوة تبوك مبايعة مســلمة، ســائلة عن أحــكام هذا الدين القيم، عاملة بما علمت، حاملة رايات نشره والدعوة إليه في الآفاق.

ولــم نقع علــى رواية من روايــات القصة تحدثت عن إســلام بني تميــم في هذه القدمة ســوى هــذه الكلمة العابرة التــي ختم بها ابن

إسحاق عرضه لأحاديث وأحداث قدوم وفد بني تميم، الذي أطبقت الروايات على أن سبب قدومه إنما هو فداء أسراهم الذين جلبهم عيينة بن حصن الفزاري، بعد أن هرب رجالهم، وتركوهم نهبًا للسبي والأسر، إلى جانب ما كان منهم من مظاهر حماقاتهم الخرقاء واصطراخهم الصاخب الأهوج بأنهم قدموا للمفاخرة والمنافرة.

ومن هنا لم يظهر لنا وجه لإقحام ابن إسحاق قوله: «فلما فرغ القوم أسلموا وجوَّزَهم فأحسن جوائزهم».

وهذا كلام يحوطه القلق من أكنافه في موضعه الذي اختاره له ابن إسحاق من إطار القصة وأحداثها، وهو بصورته هذه كأنما ألقي هكذا إلقاء لتختم به قصة قدوم وفد بني تميم مضاهأة للصورة التي ختمت بها قصص الوفود التي قدمت للإسلام والبيعة، فأسلمت وبايعت، وعادوا إلى أقوامهم في مضاربهم مبشرين ومنذرين، وهداة معلمين، وجندًا في كتائب الإسلام مجاهدين.

وجوه استبعاد ما زعمه ابن إسحاق من إسلام وفد تميم:

والذي يجعلنا نستبعد صحة هذا القول من ابن إسحاق وغيره ممن اتبعه من المؤلفين في السيرة بعده:

الوجه الأول:

أن الذين ذكروا قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ في مؤلفاتهم السيرية يوشك أن يكونوا مطبقين على أن بني تميم لم يقدم وفدهم في هذه القدمة يريدون الإسلام والبيعة، كما هو حال سائر وفود العرب، وإنما كان سبب قدوم وفد بني تميم فداء

أسـراهم الذين أخذتهم سرية رسول الله ﷺ التي بعثها إليهم بقيادة عيينـة بن حصن الفزاري، لمـا بلغه ﷺ أن بني تميم جهزوا لحرب خزاعة، أو بني العنبر، وقد جاءهم مصدق رسـول الله ﷺ بشـر بن أبي سـفيان، أو النحام العدوي، ليقبض صدقاتهم، فكبر ذلك على بنـي تميم واسـتكثروه، ومنعوا مصدق رسـول الله ﷺ أن يقبض ما أعدته خزاعة أو بنو العنبر من صدقات أموالهم، وكان هذا من أشـد ما تعرض له المجتمع المسلم في سبيل تطبيق أركان الإسلام، فعظم ذلـك على النبـي ﷺ وبعث إليهم سـرية عيينة، ولكنهـم لما رأوا كتيبـة المجاهدين فروا هاربين، فأسـر عيينة عددًا منهم ورجع بهم إلى النبي ﷺ وكان من عادته الكريمة ﷺ أن لا يتعجل بالأسـرى، بـل كان يسـتأني بهم تطلعًا إلى إسـلام قومهم، فحبس ﷺ أسـرى عيينة في دار رملة بنت الحارث وكان بيتها دارًا للأسرى.

الوجه الثاني:

أن القادمين على النبي ﷺ من بني تميم جاءوا تقدمهم حماقاتهم الجافية، وبأو [أي تكبر] عنجهيتهم الطائشة في صورة أزعجته ﷺ وآذته إيذاء شـديدًا، لأنها خرجت عـن كل أدب عام في المخاطبة، إذ إنهم دخلوا المسـجد النبوي في وقـت القائلة، والنبي ﷺ نائم، وكانوا زهاء تسعين رجلًا، فيهم عدد من أشرافهم ورؤسائهم، فنادوه ﷺ باسـمه مجردًا عن سـمات التوقير والتعظيم ومظاهر الأدب في صيـاح صاخب من وراء حجراته: يا محمد، اخرج إلينا، فإنا جئناك نفاخرك، وقال أحد سـفهائهم: إن مدحي زين، وذمي شـين، فخرج إليهم ﷺ وقـال لكاذبهم: «كذبت» ذاك الله تبـارك وتعالى. وأنزل الله فيهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الحجرات : ٤)

ولـم يذكروا شـيئًا عن رغبتهم في الإسـلام، فكيـف يقال إنهم أسـلموا؟ وكيـف أسـلموا؟ وما الذي عرفـوه عن الإسـلام في هذه القدمة؟ وما أثر إسلامهم هذا في أقوامهم بعد إذ رجعوا إليهم؟

الوجه الثالث:

إنهـم حينمـا خـرج إليهـم رسـول الله ﷺ اسـتقبلوه بعنجهية شرسـة، فقالوا لـه: جئنـاك لنفاخرك، فائـذن لخطيبنا وشـاعرنا، وهذا قول نسـجت خيوطَه الحماقةُ الجافيةُ، وهو من أشـد المجافاة للإسلام، فلو كان الإسلام هجس في قلوبهم لقالوا مثل ما قال الذين وفدوا على رسول الله ﷺ يريدون الهداية والإسلام.

وقـد تلطف بهم رسـول الله ﷺ فوسـع حلمه حماقتهـم، وأذن لخطيبهـم، فقام عطـارد بن حاجب بن زرارة -وهو أحد رؤسـائهم- فقـال ما قـال في خطبته، دون أن يذكر فيهـا كلمة واحدة تدل على رغبتهـم في الإسـلام وهدايته، فأين كان إسـلامهم الذي رمى به ابن إسـحاق في روايته لقصتهم دون أية مقدمات تمهد له، أو إشارة تدل على وجوده في أنفسـهم، سـوى أنهـم جاءوا للمفاخـرة ففاخروا، وطلبـوا المنافرة فنافروا، وكبا بهـم جواد حماقتهم كبوة رمت بهم فـي هاوية الاستسـلام بأنهم في موقفهـم الأحمق ليسـوا بأهل لأن يفاخروا مجتمعًا رباه أكمل الكملة صلوات الله وسلامه عليه.

ولما انتهى خطيبهم من لوثة أعرابيته أمر رسول الله ﷺ خطيبه

ثابــت بن قيس الأنصاري أن يقوم فيجيبه ، فقام ثابت رضي الله عنه بروح مؤمنة ، ولســان مهذب ، وقلب أخلصه صفاء الإيمان ، فتكلم لا يقيم وزنًا لمفاخرة الجاهلية الوثنية ، ولكنه كان يتكلم بلســان الهدايــة التي كانت وما تــزال مفاخرها هي نصــرة دين الله تعالى ، ونصــرة نبيه ﷺ ونشــر دعوته وتبليــغ رســالته ، والجهاد لإعلاء كلمة الله .

الوجه الرابع:

إننا نقرأ في شــعر حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ الذي أجاب به الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم هذين البيتين اللذين خاطب بهما وفد بني تميم :

فإن كنتمُ جئتم لحقن دمائكم   وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله نــدًا وأسلموا   ولا تلبسوا زيًـا كـزي الأعاجم

وأول البيتين صريح في أنهم قدموا لحقن دمائهم وصون أموالهم خشــية أن يجزيهم النبي ﷺ على ســوء تصرفهم مع مصدقه لأموال خزاعــة ، أو أمــوال بني العنبــر ، أو على تجهيزيهم الســلاح لحرب خزاعة الذين كانوا قد أعدوا صدقاتهم ليبعثوا بها إلى رسول الله ﷺ ليضعها في مواضعها من مقاســم الصدقات ، ولم يذكر شيء قط في هذه المفاخرة الشــعرية يــؤذن من قريب أو بعيد بــأن هؤلاء الجفاة الحمقى قدموا على رسول الله ﷺ ليســلموا ويبايعوا ، أو ليتكلموا فــي فــداء ســباياهم وذراريهــم ، فقد أنســتهم جفوتهــم الحمقاء أن يتحدثــوا فــي تخليص هؤلاء الأســرى الذين أجهشــوا لهــم بالبكاء حينمــا رأوهم يمــرون عليهم وهم في محبســهم مــن دار رملة بنت

الحارث الأنصارية.

ويأتي البيت الثاني صريحًا في تسجيل عدم إسلامهم، وأنهم لم يقدموا كسائر وفود العرب للإسلام والبيعة؛ لأن حسان رضي الله عنه جبههم في هذا البيت بأنهم لم يقدموا للإسلام، وإنما قدموا لحقن دمائهم وأموالهم، وهذا أمر لا يتحقق لهم إلا إذا طرحوا الشرك وراء ظهورهم، واتخذوا التوحيد عقيدتهم، ودخلوا في دين الله كما دخل فيه الناس أفواجًا، ولا يتخذوا من الكفر هيئة تبعدهم عن عروبتهم، وتدخلهم في حظائر الأعاجم الذين لم يؤمنوا بالله إلها واحدًا.

فهذان البيتان صريحان في أن وفد بني تميم لم يقدم للإسلام ولا حدث نفسه به، فمن أين جاءت رواية ابن إسحاق التي يخبر فيها بأن القوم أسلموا، وأن النبي ﷺ جوَّزهم فأحسن جوائزهم، بمجرد أن فرغت مفاخرتهم ومنافرتهم، دون أي حديث يمهد لهذا الإسلام؟

الوجه الخامس:

إن الناظر في قصص الوافدين من قبائل العرب، متأملًا في أحاديثهم وأحداثهم، سواء كانوا أفرادًا من أشراف القبائل ورءوس البطون، بعثهم أقوامهم ليرتادوا لهم الأخبار عن انتصارات المجتمع المسلم بقيادة رسول الله ﷺ، أم كانوا جماعات من ذوي رأي القبائل وزعماء البطون أرسلهم أقوامهم ليعلموا لهم علم رسول الله ﷺ، وعلم ما جاء به من هذا الدين الجديد الذي سفَّه أحلام العرب في شركهم ووثنيتهم التي توارثها الآباء عن الأجداد،

والـذي كشـف الغطاء عـن جهالتهم الحالكـة، فانقادت لـه قبائل العـرب، واعتنقـت عقيدته التوحيدية، وحملـت رايات الجهاد في سـبيل نشر دعوته وتبليغ رسـالته إلى العالمين، ولم تبق بعيدة عنه في جزيرة العرب إلا هذه الشـراذم المتشـتتة هنـا وهناك، تراوحها الحيـرة، متربصـة، لا تتقدم ولا تتأخر حتى أتاهـا اليقين، فنهضت لتلحـق بركب الهـدى والنـور، وأرسـلت عرافيها، وأهـل خبرتها وحكماءهـا، فجاءوهـا بالبينـات بعدمـا سـألوا وأجيبوا فأسـلموا وبايعوا، ونشـروا بين أقوامهم صحائف الهداية، فاتبعهم أقوامهم، وآمنوا إيمانهم وأسلموا وجوههم لله رب العالمين.

كذلـك كان حـال الوفود في حرصهم على فهم الإسـلام، وتعلم شـرائعه وأحكامـه، وآدابه، ونظمه فـي الحياة، وتطبيـق ما عُلِّموه تطبيقًا عمليًا، جعلهم نماذج حية لفضائله.

حـرص الـوفـود عـلـى الـتـفـقـه فـي الـديـن ومـكـارم رسول الله ﷺ فيهم:

وقـد كان لكثير منهم سـؤالات عن أشـياء كانت شـائعة بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على تفقيههم في الدين، وبيان أحكام ما سألوه عنه، وكان صلوات الله وسـلامه عليـه يُدني منه من يعلـم منه زيادة حـرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهًا فيه يقول لأصحابه: «فقهوا إخوانكم».

وكان الوافـدون ينزلون في أيام وفادتهم دار الضيافة، فيكرمهم، ويرسـل لهم الطعام من بيته، ويذهب إليهم يحدثهم ويعلمهم وهو واقـف بينهم يراوح بين رجليه من طول قيامه حفاوةً بهم، وإشـفاقًا

عليهم، وعلى من وراءهم من أقوامهم ليخرجهم من ظلمات الجهالة الوثنية إلى نور الهداية التوحيدية ويسألهم عن حال قومهم وبلادهم، ويدعو لهم بأخصب الغوث إذا أجدبوا، ويبتهل إلى الله تعالى أن يرفع عنهم ما ينزل بهم من بلاء وأزمات في أنفسهم وأموالهم، ويُهدي إليهم ويقبل هداياهم، ويحدثهم ويبتهل إليهم، ويسأل عمن يعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق في الشدة والرخاء، وحثهم على الاعتصام بالصبر إذا طاف بهم طائف البلاد، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوِّي بينهم، فيجيز صغيرهم بمثل ما يجيز كبيرهم، وكان خازنه بلال رضي الله عنه إذا لم يسعفه ما عنده لقلة ما في يده أعطاه ما سنح واعتذر لهم.

فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هُداة دعاة، مشرقة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما علموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي ﷺ وبره وبشره، واستنارة وجهه سرورًا بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم وتحاببهم، ومواساة بعضهم بعضًا، ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التأسي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم.

هكذا كان دأب الوفود التي وفدت على النبي ﷺ للإسلام والبيعة، لم يندّ عن ذلك إلا وفد بني تميم في قدمته لفداء أسراهم، وهكذا كان موقف النبي ﷺ وموقف أصحابه من جميع الوفود التي وفدت للإسلام والبيعة.

فالدافع لجميع الوفود التي روى أحاديثها وأحداثها أهل السيرة

النبويـة من السـلف والخلـف خلا وفد تميـم الذي قـدم للمفاخرة والمنافرة، ونسـي الدافـع الأول لقدومه، وهو تخليص الأسـرى - إنمـا كان هو الإِسـلام والبيعة والتشـرف برؤية النبـي ﷺ، وتلقي أصول الإسلام وشرائعه منه ﷺ، والاقتداء بسمته وعمله، والتأسي بأصحابـه فيما أخذوه عنه مـن الهدى ومعالم الإيمـان علمًا وعملاً وسلوكًا وتربية.

فمن أين جاء ابن إسـحاق بإِسـلام بني تميم في هذه القدمة الذي أقحمه على القصة وختم به حديثها؟ بصورة شـاردة نافرة، وأسلوب قلق لا يرتبط بأحداث القصة، ولا بشيء من وقائعها.

القرآن الحكيم يرد دعوى ابن إسحاق في إسلام وفد بني تميم:

ولـو لـم يكن من موجبـات طرح قـول ابن إسـحاق أن القوم لما فرغوا -أي من مفاخراتهم الجاهلية ومنافراتهم العنجهية الحمقاء- أسـلموا وجوزهـم النبـي ﷺ فأحسـن جوائزهـم - إلا مـا أنزل الله تعالـى في تجبيههم وتقريعهم علـى قبح ما صدر منهم لكان كافيًا، بـل فوق الكفايـة، وذلك بما أنـزل الله تعالى فيهم مـن وحيه الذي حطهم عن معنى الإنسـانية الذي خص الله به الإنسـان تمييزًا له عن سـائر مخلوقاته، وبه فضله على كثير منها، وبه وضع في يده قيادة الحياة، وبه سـخر له معالم الكون، وأخضع له مظاهر الطبيعة حتى علم من أسـرارها ما كشـف له عن وجه الحقيقة الكبرى، وهي التي أرسل بها جميع الرسل لهداية الخلق وإخراجهم من ظلمات الشرك، وحوالك الوثنية إلى نور التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى وحده،

ثم ختم عز شأنه هذه الرسالات -بعد أن اكتمل مناط التكليف في الإنسان باكتمال خصيصة التمييز بين المتماثلات والتفريق بين المتشابهات التي هي سر الله في الإنسان- بهذه الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد النبي الأمي ﷺ، التي شرف بها الوجود عامة، وأمة العرب خاصة على سائر الأمم والشعوب باستخلافها في الأرض ما دامت معتصمة بهذه الرسالة، باصطفائه حامل أمانتها من أشرف أروماتها، وكتب التوفيق والفلاح لمن اتبع سبيلها، وجعل البوار والضلال على من تنكّب طريقها.

وذلك قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

(الحجرات: ٤)

وقد أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت لتسجيل جفوة هؤلاء الحمقى، وتسجيل ما عابهم الله به وعنَّفهم عليه، ووصفهم فيها بما حطهم عن أحطّ مراتب خصيصة الإنسان التي كان بها إنسانًا، وقد ذكر المفسرون ما لعله مستند لإجماعهم على ما قالوا، قال القرطبي: وسئل رسول الله ﷺ فقال: «هم جفاة بني تميم، ولولا أنهم من أشد الناس قتالًا للأعور الدجال لدعوتُ الله عليهم أن يهلكهم»[٢].

(٢) لم نجده في كتب الحديث وقد ذكره بعض المفسرين منهم الزمخشري والنيسابوري والشوكاني .(المجلة) .

ومعنى هذا الحديث أن الآية

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾

(الحجرات : ٤)

نزلت في جفاة بني تميم الذين آذوا النبي ﷺ بجلافتهم وسوء أدبهم وقبح فعالهم، إذ نادوه في سفه وحماقة وهو قائل في ساعة الظهيرة من وراء بيته في صياح صاخب لا يصدر عن إنسان متحل بحلية الخصيصة الإنسانية، وإنما يصدر ممن لم يكن له حظ من هذه الخصيصة، منحدرًا من عليائها إلى مهاوي الحيوانية التي لم يكن لها في خلقتها من هذه الخصيصة نصيب.

ثم أخبر النبي ﷺ بطريق الإشارة المعبرة بما جاءه به الوحي أن هولاء الجفاة الحمقى سيخرج الله من أصلابهم وأصلاب سلالاتهم على مر الدهور من يكون له موقف إسلامي كريم عند نزول جائحات الفتن التي سيكون أشدها خروج الأعور الدجال، وهذا الموقف منهم سيكون من أشد المواقف في الجهاد ودرء جوائح الفتن عن الأمة؛ ومن أجل هذا الموقف أكرمهم رسول الله ﷺ وامتنع عن الدعاء عليهم دعاء يهلكهم ويستأصل شأفتهم جزاء ما اقترفوه في حماقاتهم، وهذا الموقف هو أحد مواقف أبناء وأحفاد وسلالات الطغاة الذين آذوا رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده، فأبوا إلا العناد، وركبوا متن الشيطان حتى قذفهم في نار جهنم خالدين، ولكن الله تعالى بحكمته استنبت منهم نباتًا طيبًا، واستخرج من ظهورهم ذرية صالحة حملت ألوية الجهاد في سبيل الله، فكانت أعظم الفتوحات الإسلامية على أيديهم، وأحاديث الأعور الدجال صحيحة، وهو من عالم الغيب الذي يؤذن وجوده ببدء نهاية هذه الحياة، ومن هنا قلنا: إن خروجه

سيكون من أشد الفتن التي سيتعرض لها الناس قبل قيام الساعة.

والمقصود أن قول ابن إسحاق ومتابعة من تابعه فيه من مؤلفي السيرة بعده: إن هذا الوفد التميمي أسلم في هذه القدمة، قول يدل على بطلانه سياق الروايات في مطالعها وأحاديثها وأحداثها حتى نهاياتها، فهو قول مقحم نافر عن روايات القصة في هذه القدمة، شارد عن معالمها.

كلام أبي حيان مغلق المنافذ في فهمه:

وما ورد في تفسير أبي حيان في البحر من إسلام الأقرع بن حابس بين يدي رسول الله ﷺ بعد أن رد على الأقرع تنفجه وغروره في مفاخراتهم الكاسدة، ومنافراتهم البائرة، وكان هو الذي أشعل نار هذه المفاخرة، وأغرى قومه بتلك المنافرة، بقوله الأحمق لرسول الله ﷺ: جئناك نفاخرك، فقبل منهم ذلك رسول الله ﷺ تنزلاً يستل به سخائم الشيطان، بعد أن بين لهم أنه لم يرسل بالشعر ولم يؤمر بالمفاخرة، ليردهم عن حماقتهم الجاهلية التي قضى عليها الإسلام بمنهاجه التربوي الخلقي الذي جعل من الأمة العربية أمة رائدة في سمتها وسلوكها، وهدايتها، ومكارم أخلاقها، ومحاسن آدابها، ومفاخر شمائلها، وسياستها الاجتماعية، ونظمها في الحياة من كل ما ألمت به شريعتها: عقيدة وتعبدًا، ومعاملة ونظمًا - أمر مستغلق الفهم؛ لأن الروايات الثابتة أثبتت شهود الأقرع بن حابس وصاحبه عيينة بن حصن الفزاري فتح مكة مع المسلمين تحت قيادة رسول الله ﷺ، وفتح مكة كان في السنة الثامنة الهجرية، وأول قدمة عرفت لوفد بني تميم كانت في سنة الوفود، وهي السنة التاسعة من الهجرة، وكان الأقرع بن حابس

أحـد أفـراد هذا الوفـد، معدودًا في رؤسـائه، ودخـل فيهم من ليس منهـم، مثل عيينة بن حصن الفـزاري، ولعله قد أدخله هذا المدخل الوبيء توافقه في سـلوكه المتأرجح في أراجيح الشـكوك والأوهام، والتخيلات مـع صاحبه الأقرع بن حابس التميمي، فهل كان الأقرع بن حابس دخيلًا على المسلمين في فتح مكة، ولم يكن في قلبه منه إلا أن يفوز بشـيء مـن الغنائم؟ أو كان الأقرع مسـلمًا في فتح مكة صحيح الإسـلام، ثم نكص على عقبيه وارتد عن الإسلام بعد الفتح الـذي لم تكن فيه غنائـم جاهلية؟ وبهذا الكفـر الأصيل أو الطارئ حضر مع وفد قومه بني تميم، منضمًا لأشـرافهم ورؤسـائهم، وأنه صاحـب الكلمة الحمقاء في مناداة رسـول الله ﷺ من وراء حجراته إذ قـال: يـا محمد اخرج إلينـا، فإنا جئناك نفاخـرك، وكذلك كان صاحـب الكلمـة المتسـفهة التي قالها معبـرًا عن جلافتـه وغروره وجهالته: إن مدحي زين، وإن ذمي شين، فقال له رسول الله ﷺ يرد جماح كفره: «ذاك الله تعالى».

ولما اسـتفرغ الأقرع كل ما عنده من غرور أجوف وحماقة فاجرة لم يجد أمام عجزه وخزيه وخذلانه إلا أن يسـتصغر ويذل، ويعترف أن خطيب رسـول الله ﷺ كان أخطب من خطيبهم، وأن شاعره ﷺ كان أشـعر من شـاعرهم، وأن أصـوات المجتمع المسـلم أعلى من أصواتهم.

ثم دنا من رسـول الله ﷺ وأسلم وشهد شهادة الحق، فآواه النبي ﷺ إلى كنف الإسـلام، وقـال له ليثبت إيمانه: «مـا يضرك ما كان قبل هذا».

ولا نــدري هل أراد ســيدنا رســول الله ﷺ بقوله هــذا ما كان من الأقرع من كفر جاهلي وضلالة وثنية، وفجور في الشرك، أو أراد ﷺ مــا كان من الأقرع من كفر بعــد إيمان، وضلالة بعد هداية؟ وفحوى الرواية يشــعر بهــذا الأخير، ولم تذكر هذه الرواية التي يوشــك أن يكون قد انفرد بها أبو حيان أن أحدًا من وفد بني تميم أسلم في هذه القدمة غير الأقرع، فهو وحده الذي سجلت الرواية إسلامه.

أما الإعطاء والكساء فكانا من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ، فعمَّ بهمــا أفراد الوفد كلهم تكرمًا وتألفًا لقلوبهم على الإســلام؛ ولهذا ذكرتهم الرواية بصيغة الجمع، فقالت: ثم أعطاهم وكســاهم، ولم يكن من مكارم أخلاقه ﷺ أن يخص بعطائه ومكارمه أحدًا دون أحد ممن وفد عليه، والإسلام والكفر لا مدخل لهما في المكارم المادية وشئون الحياة في المطعم والملبس.

ومن ثم فإن هذه الرواية لا تصلح مطلقًا متشبثًا لقول ابن إسحاق بــأن وفد تميم أســلم في هذه القدمة، ولعله كانــت لبني تميم قدمة أخرى أو قَدَمَات أخر وقع فيها إسلامهم، وجُوِّزوا كما جوِّزت الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ للإسلام والبيعة، والتفقه في الدين.

مجمل قصة وفد تميم في أول قدمة لهم كما ساقها منهج مؤلفي السيرة:

هــذا وجه مــن أوجه يمكن بها تفســير قصة الحماقــة التميمية، ويمكــن أن يدخــل بهــا قول ابن إســحاق في دائرة القبــول، رغم ما ســجلته عليهم جلافة وفدهم في أول قدمة لهم على رســول الله ﷺ ليفدوا الأســرى الذين أخذهم عيينــة بن حصن الفزاري قرين الأقرع

بـن حابـس التميمي، وصديقه فـي إطار التـراث الجاهلي ومظاهره المادية.

قدم وفد تميم معتصمًا بكل ما أتيح له من تراث الجاهلية الوثنية فـي المفاخـرات والمنافـرات التـي جعلوها مقصدهم فـي قدمتهم الحمقـاء، فقالـوا فـي ندائهم الأحمق مـن وراء الحجـرات: جئناك لنفاخـرك، فخرج إليهم ﷺ وأراد أن يكفكـف من حدة حماقتهم، ويطفـئ نار غرورهم بتأديـة صلاة الظهر، فتركهـم وصلى بالناس، ولكنهـم كانوا لا يزالون منغمسـين في حمأة الحماقة، فتلطف بهم ﷺ وأجابهـم لما طلبوه مـن المنافرة التي انتهت بهـم إلى الخزي والخـذلان، وعـادوا إلى قومهم عـودة الأجلاف الجفـاة إلى الجفاة الأجـلاف، وقلدهـم النبي ﷺ من مكارمه قلائد لا تنسـى فأعطاهم وكساهم ليتألف قلوبهم على الإيمان حتى يعودوا إليه مسلمين.

بيد أن القرآن الحكيم اتخذ من قصتهم مِيسـمًا وسمهم به جزاء تفلتهم من عواصم استقامة التفكير الإنساني، فقال بعد أن وصفهم بسـوء الأدب في جملـة ابتدائيـة، كان فيها المبتدأ اسـمًا موصولًا جمعهـم وعمهم، ثـم الخبر مسـجلًا عليهم قاصمـة الظهر فقال: «أكثرهم لا يعقلون».

والتعبير بالكثرة فن من فنـون البراعة البيانية في القرآن العظيم يـراد به الجميـع أو ما هو أقرب إلى شـمول الجميـع، لتأخذ الدقة الأسـلوبية مكانها من التعبير، ويأخذ الاحتياط لإخراج من عسى أن لا يكـون قد كان منهـم في الحماقة، ولكنه عجـز أن يدفع الحماقة بالكياسة.

وقد يوجد في بعض أحاديث قدوم وفد بني تميم وأحداثهم عند علماء الحديث روايات قد تكشف عن بعض هذه الأوجه الأخرى للقصة ؛ مما قد يدل على أن لبني تميم قدمة أخرى أو قدمات أخر غير التي انساقت إليها روايات أهل السير ، قد تختلف قليلًا أو كثيرًا مع هذه الروايات في الأسلوب والحوادث .

ولا ريب أن نسق أهل الحديث في سياقاتهم لروايات أحاديث ووقائع السيرة النبوية أدق أسلوبًا وأصفى متنوعًا ، وأقرب إلى نضج البحث وسواء التحقيق ؛ لأنه منهج في البحث يقوم على تقبل النقد الممحص للأسانيد والمتون ، ولا ننكر أنه قد ند عن هذا المنهج الحديثي الشيء بعد الشيء ، فيلاحقه التأويل المتعسف لتصحيح تخريجه تغليبًا لحسن الظن بالمعدلين من الرواة ، ولا سيما إذا كان الراوي الثقة ممن كسب في تاريخه الحديثي شهرة وإعظامًا أقاماه في نظر الخالفين من الباحثين مقامًا محمودًا ، ولكن الله عز شأنه لم يجعل العصمة في دينه لأحد من البشر سوى الأنبياء والمرسلين .

موازنة بين منهج علماء الحديث ومنهج علماء السيرة:

وهذا المنهج الحديثي يجري في البحث على خلاف نسق السيريين الذي يسوده الاحتكام إلى العواطف الوجدانية ، سلبًا وإيجابيًا ، نفيًا وإثباتًا ، على معنى أنهم قد يثبتون ما لا يثبت ، وينفون بحكم عواطفهم ما لا ينبغي أن ينفى بحكم واقعه من الوجود ؛ لأن منطقهم في البحث منطق عاطفي يقوم على مبدأ التسامح في الفضائل ، وهذا النسق السيري في ظل هذا المبدأ المتسامح لا يتحرج من قبول الروايات الفضفاضة التي تستجلب

الإعجاب البطولي، والبراعة البطولية، ومط الشفاة؛ لأن موازين هذا النسق في البحث تأبى أن تخضع للتفكير المستقيم على دعائم السنن العامة في نظام الكون ومسيرة الحياة.

ولا يرى أصحاب هذا النسق حرجًا أن يكون مقياسهم في البحث قائمًا في كثير من وقائعها على منهج السنن الخاصة، حتى ولو لم يتطلبها الموقف، ولا يسمح للعقل أن يجول خلالها ليكشف حقائقها، وهذا نسج من التفكير يلوي عنق الدعوة الإسلامية، ويعوق مسيرتها في تبليغ الرسالة، ويجعل موقفها من العقل موقف الخصم الذي يجادل عن الحق بغير حجة مقبولة في منهج المنطق العقلي.

استظهار أن إسلام بني تميم بدأ بعد قدمتهم الأولى:

على أساس هذا التصور الذي عرضنا في إطاره عرضًا مفصلًا قصة أول قدمة لأول وفد من بني تميم، وعلى أساس رواة المحدثين من أئمة السنة بمناهجهم السندية والنقدية، البخاري وغيره من هؤلاء العلماء، وعلى أساس ما ذكروه في كتبهم الحديثية من أحاديث وأحداث هذه القصة.

وعلى أساس ما ذكره المفسرون في تفاسيرهم للقرآن العظيم في بيان معنى وأسباب نزول قوله عز شأنه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات: ٤)

نستظهر أن هذه القدمة التميمية - التي جاءت أحاديثها

وأحداثها من طريق روايات مؤلفي السيرة النبوية، ومدوني وقائعها، والتي كان فيها ما كان -طبقًا لما روته الروايات السيرية- من صور الجلافة الوثنية، وجفاء الشرك المتغطرس، وفجور الكفر المتنطس، والحماقة المتسفهة، وغرور البطش المتحلل من قيود الإنسانية المتحلِّي بسوء الأدب الاجتماعي المسعور، وتهور التصرف الأبله في مخاطبة سيد الخلق محمد خاتم النبيين ﷺ.

والتي نزل فيها من القرآن العظيم ما سجل على هؤلاء الحمقى أقبح وأرذل صور الحماقة الطائشة في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات: ٤)

والتي زاد فيها أبو حيان في تفسيره على روايات السيريين حكاية الأقرع بن حابس، وموقفه الذي أفرده به أبو حيان دون غيره من بقية رؤساء الوفد، مما لم نعرف له سندًا يتكئ عليه - كانت أول قدمة من بني تميم الذين كانوا في عنفوان جاهليتهم، تلتها قدمة أو قدمات بعد أن شذبت فيها تميم من أشواك عنجهيتها وضريع كفرها.

هذه القدمات أو القدمة هي التي وقع فيها إسلام وفود بني تميم، وعادوا لأقوامهم فأسلموا متتابعين بإسلامهم بعد أن نقلوا لهم الكثير من أحاديث شمائل محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، ومحاسن شيمه، ولطف عشرته، وسماحته، وفضائل دعوته، وسمو رسالته، وما اشتملت عليه من حكم وأحكام في عقيدتها، وشرائع تعبداتها، ونظمها الاجتماعية في مجتمعها المسلم من كل ما يحقق بين أفراد وجماعات هذا المجتمع المسلم الذي يكتنف رسول الله ﷺ بأرفع

معاني الحب الإيماني، ويحقق العدالة والإخاء والمساواة والمواساة والترافق والتراحم، حتى كانوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

سبب قدوم أول وفد من تميم على رسول الله ﷺ وغزوة عيينة بني تميم:

وكان سبب قدوم وفد بني تميم في أول قدمة قدمها على رسول الله ﷺ وهم متجلببون جلابيب الجاهلية الحمقاء، وقع من هذا الوفد كما وقع له ما روته أحاديث السيرة من الوقائع الطائشة، والأحداث المتسفهة - هو القصد إلى افتداء رجالهم الذين أخذهم عيينة بن حصن الفزاري بعد هربهم من مواجهته كما ذكره الواقدي.

وكان عيينة بن حصن في صفوف المسلمين مع النبي ﷺ، وشهد معه فتح مكة، وحنينًا والطائف حينما بلغ النبي ﷺ أن تميمًا جهزوا السلاح لمحاربة خزاعة من أجل أن يمنعوهم من توصيل صدقات من أموالهم إلى رسول الله ﷺ على يد مصدقه الذي بعثه إليهم ليقبض صدقاتهم، فقال ﷺ: «مَن لهؤلاء؟» فندب عيينة بن حصن نفسه إليهم، فانتدبه رسول الله ﷺ أميرًا لسرية من خمسين رجلًا من عامة المسلمين، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري صيانةً لهم عن رياسته؛ لئلا يقع لهم منه ما يسوءُهم، وفي رواية عند البخاري أن بني تميم تعرضوا لمصدق رسول الله ﷺ فمنعوه من قبض صدقات بني العنبر، وهم رهط من بني تميم استكثارًا لها، فذهب إليهم عيينة في سريته يكمن النهار ويسير الليل حتى فاجأهم، ففروا هاربين من وجهه، وتركوا من تركوا من أقوامهم، فأخذهم عيينة أسرى.

فلمـا بلغ بهم عيينــة المدينة وضعوا في دار رملـة بنت الحارث الأنصارية، وكانت دارها قد اتخذت محبسًـا للأسرى قبل التصرف في شـأنهم، ورجع بنـو تميم إلى ديارهم بعـد أن هربوا منها، وبعد أن نجـا عيينة بغنيمته فلم يجدوا فيهـا، فتلاوموا، وعزموا الرحيل لافتـداء رجالهم ووصلـوا المدينة في نحو تسـعين رجلًا يتزعمهم أشـراف جاهليتهـم، ودخلـوا مسـجد النبـي ﷺ في صيـاح منكر وصخـب أحمـق، ونسـوا ما كانـوا قد جـاءوا إليـه، وكان منهم ما كان في المســجد النبوي مع رسـول الله ﷺ وأصحابه مما قصصناه تفصيلًا.

وقد جاء في بعض الروايات السـيرية أن النبي ﷺ -على رغم ما كان منهـم- تلطف بهم، وترفق معهم متكرمًا، فمنَّ عليهم بإطلاق نصف أسراهم دون فداء تألفًا لقلوبهم على الإسلام وفادى نصفهم، ولكن حماقة الغرور الجاهلي لم تقنع بهذه السماحة الرحيمة، وهذا التفضـل الكريم، فلجوا فـي طغيانهم وتعالوا فـي بأوهم، وأصروا على حماقتهم، واسـتكبروا اسـتكبارًا، وتحامقوا سـفاهة، وطلبوا مـن رسـول الله ﷺ المفاخـرة، وقـال متكلمهم الأقرع بـن حابس لرسـول الله ﷺ: جئنـاك لنفاخـرك، فأجابهـم تنـزلًا وتلطفًا بهم، ولكـن الله تعالـى أخزاهم فيما طلبـوه من المفاخـرة خزيًا نكس به رءوسهم، وأذل غرورهم، وخذلهم خذلانًا فشَّ بُجْر عنادهم، وسيَّح تورم أخادعهم.

وكان الأقـرع بـن حابـس هـو المتكلم عنهـم المعلـن لخزيهم وخذلانهـم بقولـه بعد انتهاء المفاخـرة: وأبي، إن هـذا لمؤتى له،

لخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم تقول الرواية: إن الأقرع دنا من النبي ﷺ فأسلم، وشهد شهادة الحق.

والقارئ لا يخفى عليه هذه التناقضات والمواقف المنحلة، ولا ندري كيف رضي بها الذين دونوها في كتبهم ومؤلفاتهم، وكيف قبلتها عقولهم، وفيهم من أهل العلم من يشار إليه في معارف الإسلام؟!

وأعجب العجب ذكر عيينة بن حصن الفزاري في وفد أشراف وزعماء بني تميم وهو ليس منهم، وهو قد كان من المسلمين في صفوفهم قبل سنة الوفود، وشهد مع المسلمين الفتح الأعظم وغزوة حنين والطائف، فكيف يتفق ذلك مع موقف عيينة في زعامته لبني تميم؟ وليس من مآثر قبائل العرب أن يرئِّسوا عليهم رجلًا من غير قبيلتهم، ولا سيما في كبريات قبائلهم.

قدمة أخرى لبني تميم أخرجها البخاري ليس فيها ما في القدمة الأولى:

وقد روى البخاري رحمه الله في إيجاز موجز حديث وفد بني تميم في كتاب (بدء الخلق) من صحيحه، وفي باب البعوث والسرايا عن عمران بن حصين رضي الله عنهما فقال: أتى نفرٌ من بني تميم النبي ﷺ، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: يا رسول الله، بشرتنا فأعطنا، فرُئي ذلك في وجهه، أي رأى أصحابُه رضوان الله عليهم دلائل الأسف والحزن في وجهه من سوء ما ردوا به بشراه ﷺ مما عراه من التغير، وقد شرحت الرواية الأخرى هذه العبارة، فبينت المراد منها، فقالت: فتغير وجهه ﷺ، وهذا مثل

قــول الصحابــة إذا أُتي بين يديــه فعلٌ لم يعجبه وتكلــم بكلام وهو يسمع فلم يرقه: «فتمعَّر وجهه ﷺ ورُئي فيه مثل الظلل».

وهــذا التغير الذي بدا على وجهه الشـريف إنمــا كان لِما اعتراه مــن الحزن عليهم والأســف لهم إذ فاتهم من الخيــر ما لا يقدر قدرَه إلا الله تعالــى، لإيثارهم الدنيا قبل أن يعرفوا ما يريد أن يبشــرهم به ﷺ، وبشــراه لا تخرج عن خيــرى الدنيا والآخرة، ولكنهم بســوء أطماعهم في عرض الدنيا وزخارفها فاجأوا النبي ﷺ بتعجل الفانية على الدار الباقية.

وفــي هــذا التعبيــر دلالــة على شــدة ما ألَمَّ به ﷺ من شــدة الأســى عليهم والحزن لهم والأسف لما فاتهم من الخير لو أنهم هشوا لبشرى رســول الله ﷺ وقبلوها بإيمان ورضا، كما قبلها الأشــعريون رهط أبي موسى الأشعري رضي الله عنه كما جاء في الحديث نفسه في روايتيه.

وليــس في روايتي البخاري رحمه الله ما يشــير من قريب أو بعيد إلى شــيء مما أورده أهل السير في قصة وفد بني تميم، لا من ناحية ســبب قدومهم، ولا من ناحية ما كان من الوافدين من التميميين من حماقة طائشة، وجلافة جاهلية، سجلها القرآن العظيم في قوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات: ٤)

ولا مــن ناحية تنفجهم بطلب المفاخــرة، ولا من ناحية ما زعمه ابــن إســحاق فــي ختام كلامه عــن القصة مــن أن وفد بنــي تميم قد أســلموا بعــد أن فرغوا مــن مفاخراتهم، وأن النبــي ﷺ قد أمر لهم بجوائز أكسية.

الحافظ ابن حجر يقحم على رواية البخاري ما يشرحها من كلام ابن إسحاق:

بيد أننا نجد ابن حجر قد أقحم أشياء من كلام ابن إسحاق فأدخلها في فتحه لشرح الجامع الصحيح، فحكى عن ابن إسحاق تسمية بعض أفراد الوفد من زعماء بني تميم، فقال: وذكر ابن إسحاق أن أشراف بني تميم قدموا على النبي ﷺ، منهم عطارد بن حاجب الدارمي، والزبرقان بن بدر السعدي، وعمرو بن الأهتم المنقري، والحتات بن يزيد المجاشعي، ونعيم بن يزيد بن قيس بن الحارث، وقيس بن عاصم المنقري.

ثم قال ابن حجر: قال ابن إسحاق: ومعهم عيينة بن حصن الفزاري وكان الأقرع بن حابس وعيينة شهدا الفتح، ثم كانا مع بني تميم.

ولا ندري ما هذا؟ وكيف كان؟ وعيينة فزاري وليس تميميًا، وكان من شهود الفتح الأعظم في صفوف المسلمين، فما الذي أتى به في وفد بني تميم قبل أن يسلموا؟ وما الذي دفعه إلى ما كان منه -طبقًا لروايات السيرة- مما لا يصدر عن مسلم؟

إمارة سرية عيينة لبني تميم يخرجها البخاري عن ابن إسحاق:

وأغرب من ذلك وأدخل في استدعاء العجب أن عيينة كان أمير السرية التي غزت بني العنبر، وهم بطن من تميم، فأوقع بهم، وأسر رجالهم، فقدم رؤساء بطون تميم، كما ذكرهم ابن إسحاق بأنسابهم، وأدخل معهم عيينة الفزاري، قال ابن سعد في طبقاته: كان ذلك في المحرم سنة تسع.

وحديث غزو عيينة لبني العنبر إحدى بطون تميم خرجه البخاري

في صحيحه عن ابن إسحاق، فقال: باب، قال ابن إسحاق: غزوةُ عيينةَ بن حصن بن حذيفة بن بدر، بني العنبر، من بني تميم، بعثه النبي ﷺ إليهم فأغار وأصاب منهم ناسًا.

وقد ذكر ابن حجر -في شرح كلام ابن إسحاق الذي رواه البخاري عنه-: كلام الواقدي في بيان سبب بعث عيينة إلي بني تميم، أو إلى بني العنبر منهم، فقال: إن بني تميم أغاروا على ناسٍ من خزاعة، فبعث النبي ﷺ إليهم عيينة بن حصن في خمسينٍ رجلًا، ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلًا، فقدم رؤساؤهم بسبب ذلك.

تناقض بين موقف عيينة بن حصن الذي أخرجه البخاري وموقفه الذي أقحمه ابن إسحاق:

فكيف يتفق مجيء عيينة الفزاري في وفد بني تميم الذيٍ قدم المدينة لافتداء أسراهم الذين أسرهم عيينة في غزوة لهم مبعوثًا من النبي ﷺ إليهم لتعديهم على مصدق رسول الله ﷺ، وعلى أموال الزكاة، بعد شهوده فتح مكة في صفوف المسلمين، ويكون متكلم وفد تميم ولسانهم وزعيمهم في حماقتهم؟ فهل كان عيينة في فتح مكة مسلمًا صحيح الإسلام ثم ارتد عن إسلامه ليكون مع بني تميم في حماقاتهم؟ أو أن عيينة كان في حضوره مع المسلمين فتح مكة بغير إسلام صحيح، وإنما ساقته أطماعه في المغانم هذا المساق المشبوه، ولعيينة بن حصن موقف في الطائف أشبه بهذا الموقف، حينما تعاصت ثقيف على النبي ﷺ فقال قائل: ألا إن القوم مقيمون، فقال عيينة: أجلْ مجدة كرام، فقال له بعض المسلمين: قاتلك الله؟! أتمدح قومًا لأنهم تعاصوا على رسول الله ﷺ؟ فقال عيينة: أما إني لم أصحبكم لأحارب معكم ثقيفًا، ولكني صحبتكم

رجاء أن يفتح محمد ﷺ ثقيفًا، فأنال خيرًا.

وكيف ساغ لابن حجر أن يقبل كلام ابن إسحاق في ذكره عيينة بين أفراد رؤساء الوفد التميمي؟ وعيينة هو الذي أوقع بهم، وأسر رجالهم.

هذه روايات عجيبة في مساقها، مضطربة في مخارجها، متهافتة في أسلوبها، لا يصلح أن تذكر في مصادر السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها.

غموض في روايات البخاري لأحداث قصة وفد بني تميم وما نزل فيها من الآيات القرآنية:

وقد أورد البخاري في تفسير سورة الحجرات من جامعه الصحيح قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾

(الحجرات: ٤)

وأتبعه بذكر حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، من طريق ابن أبي مليكة، فقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجاج عن ابن جريح، قال: أخبرني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخبرهم أنه قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للنبي ﷺ: أَمِّر القعقاع بن معبد -أي على بني تميم- وقال عمر رضي الله عنه: أَمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر -أي موجها الكلام إلى عمر- ما أردتَ إلى خلافي؟ أو قال: ما أردتَ إلا خلافي، ومعنى هذه الجملة بصورتيها أن قول أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه كان تعبيرًا من تعبيرين، وقع الشك من الراوي في تعيين التعبير الذي صدر من أبي بكر رضي الله عنه، هل قال لعمر: ما أردتَ إلا خلافي بأسلوب القصر المؤدَّى

بـ(ما) النافية و(إلا) الاستثنائية، على معنى «إنما أردتَ خلافي» أو قال: ما أردت إلى خلافي بأسلوب الاستفهام الإنكاري، المؤدَّى بـ(ما) الاستفهامية و(إلى) الجارة الانتهائية، فبيَّن عمر أنه لم يقصد مخالفته، وإنما أشار على رسول الله ﷺ بما أداه إليه اجتهاده لمصلحة الإسلام والمسلمين. وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث بغير شك، بطرق القصر بـ(إنما) فقال: إنما أردتَ خلافي، أي ليس مقصودك إلا مخالفة قولي، وقد اعتمد ابن حجر رواية الإمام أحمد التي لا تردد فيها، وهي رافعة للشك عند من زعمه في كلام الصديق رضي الله عنه.

قال ابن أبي مليكة في حديثه عن عبد الله بن الزبير، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

(الحجرات: ١)

حتى انقضت الآية، وفي رواية ابن جريج إلى قوله: «ولو أنهم صبروا».

التماس حكمة لصنيع البخاري في روايات القصة:

وسياق هذا الحديث يشعر أن شيئًا من الاختصار قد دخله فتداخلت جمله وألفاظه، وغمضت بعض مقاصده ومراميه، ولعل ذلك جاء من قبيل أن المحدثين به كانوا أقرب إلى معرفة الأحداث، فحدثوا بما يشبه عنوانات السائل ولا سيما في الإشارة إلى ما نزل من الآيات.

قال ابن حجر: وقد استشكل ذلك، قال ابن عطية: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب، والظاهر أن مرجع الإشارة في كلام ابن عطية هو الإتيان من أول السورة إلى قوله تعالى:

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾

(الحجرات : ٢)

وهذا الإطلاق كثير في كلامهم.

ويوضح ما ذهبنا إليه ما جاء في الرواية الأخرى لحديث ابن أبي مليكة فنزل في ذلك :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

حتى انقضت الآية، ثم أتبع البخاري ذلك بقوله : باب قوله : «ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم»، ولم يذكر حديثًا في باب هذه الآية ليدلل بذلك على أن هذه الآية داخلة مع سابقتها في سببية النزول.

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث، أي حديث : «كاد الخيران أن يهلكا»، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة «لا تقدموا» ولكن لما اتصل بها قوله : ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ تمسك عمر منها بخفض الصوت.

دعوى ابن حجر أن الذي نزل متعلقًا بقصة الشيخين هو قوله: «لا تقدموا» غير مسلمة:

وقول ابن حجر : فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين هو أول السورة «لا تقدموا» غير مسلم ؛ لأن مجرد تكلم الشيخين في التأمير، وتخالفهما في الرأي لا يقتضي عتابًا، بل نهيًا لا يخلو من الشدة ؛ لأن كلامهما بين يدي النبي ﷺ كان من قبيل المشورة، واختيار أمثل الرجلين القعقاع بن معبد التميمي، أو الأقرع بن حابس التميمي لتأميره على بني تميم فهو من باب الاجتهاد لصالح المسلمين.

ولا شك أن هذا أمر مشروع، بل أمر محبب إلى رسول الله ﷺ، وقد جاء في حديث أبي هريرة : ما رأيتُ أكثر مشاورةً من

رسـول الله ﷺ، وكان من دأبه اختصاص الشيخين بمشاورتهما في كبريـات الأحداث وعظائم المشـكلات، فيأخذ برأيهما إن اجتمعا علـى رأيٍ، أو برأي أحدهما إن رأى فيه رفقًا وصلاحًا للأمة، كما هو مشـهورٌ متعارف، وقصة اختصاصهما في مشاورتهما في أسرى بدر ممـا وقع عليه إجماع المحدثين وأهل السـير، وبدهـي أن ذلك لم يكن منه ﷺ إلا فيما لم ينزل في شأنه وحي من الله تعالى، وقد ثبت عنه ﷺ أنه شـاور أصحابه في غزوة تبوكٍ في التقدم بهم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر رضي الله عنه: إن كنتَ أُمرت بالسـير فسـر، فقال ﷺ: «لو أُمرتُ بالمسير لما استشرتكم فيه».

لمحات من كلام المفسرين في الآيات من أول السورة لعلها تضع الأمور في مواضعها:

وهذه الآية التي افتُتحت بها سورة الحجرات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١)

لم تنزل على سـبب خاص، وإنما نزلت تمهيدًا وبسـاطًا لما بعدها مـن النهي عن رفـع الصوت والجهر لـه ﷺ بالقول جهـرًا يغمر صوته بلفظهـم، ويبهر منطقـه بصخبهم؛ مما يخـل بمقام توقيـره وتبجيله ويزلزل في نفوسهم الحرص على التزام رفيع الأدب في مخاطبته ﷺ.

قال الزمخشري: ولما كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك، ثم قال الزمخشري: وفي هذا تمهيد وتوطئـة لما نقم منهم فيما يتلـوه من رفع أصواتهم فوق صوته؛ لأن مـن أحظاه الله بهذه الأثـرة، واختصه هذا الاختصـاص القوي، كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوتَ، ويخافت لديه بالكلام.

وقد أكدت ذلك آيةُ الافتتاح إذ قرنت التوطئة بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله بالأمر بالتقوى لبيان أن التقوى إذا تخللت شغاف القلب كانت أعظم حاجز عن الانزلاق إلى ما يخالف منازلها من ذروة الإيمان.

قال الزمخشري في بيان قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهيّ عنها، وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه، فإن التقيَّ حذرٌ لا يشافه أمرًا إلا عند ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه.

والشيخان: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق هما سيدا المؤمنين من أتباع المسلمين، وأعلمهم بالله، وأرعاهم لحق رسول الله ﷺ في التوقير والتعظيم، وألزمهم للتقوى، وكانا أحق بها وأهلها، فهما أحذر الأولين والآخرين من المؤمنين أن يشافها أمرًا إلا بعد أن يعرفاه معرفة تكشف عن مداخله ومخارجه، ومكانه من الدين في عقيدته وآدابه وأوامره ونواهيه وأنه لا تبعة عليهما فيه.

وليس هذا من قبيل ادعاء العصمة لهما أو لغيرهما من عامة المؤمنين وخاصتهم عن وقوع بعض هفوات الزلل والخطأ في أمر من أمور سياسة الدنيا والاعتصام بعروة الدين؛ لأن العصمة خاصة من خواص النبوة لا تتحقق إلا بها، ولا تكون إلا معها.

إن مراقبة الله في الجهر والنجوى كانت شطر إيمانهما، فإذا وقعت منهما الهفوة من الزلل أو الخطأ أسرعا إلى مسارهما في مطالع وقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١)

فمفتتح السورة لا مدخل للشيخين فيه إلا كما يدخل عامة

المنادين بما فيه من التشريف، ولم يكن قط مما يخصهما أو يخص مؤمنًا بعينه وشخصه، ولم يكن نزوله لمقتضٍ استدعاه كما هو شأن أسباب النزول المرتبطة في نزولها بالأشخاص والأحداث.

ولكنه نزل مفتاحًا لما جاء بعده في هذه السورة العظيمة من الأوامر والنواهي والآداب الاجتماعية التي أدب الله بها المجتمع المسلم في سلوكه ومكارم أخلاقه حتى يكون قدوةً لسائر مجتمعات الإنسانية في مستقبل حياتها، ما دام هذا المجتمع الإيماني معتصمًا بعروة هذا الدين القيم، دين الإسلام والمؤاخاة والتراحم والمساواة، والمواساة والترافق، هذا الدين الذي ارتضاه عز شأنه دينًا للناس أينما كانوا من أرض الله، يقودهم بخطم التوحيد الخالص لله جل وعز إلى ذروة العبودية ويقين الإخلاص والحب لله وفي الله.

تخالف حديث ابن أبي مليكة في السند والمتن:

وحديث ابن أبي مليكة رواه البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من الجامع الصحيح بسندين مختلفين، وساقه بعبارة متخالفة تخالفًا يكاد يكون تعارضًا.

الرواية الأولى: قال البخاري: حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي، حدثنا نافع بن عمر -قال ابن حجر: في إزالة ما توهمه واهم: هو أي نافع بن عمر المذكور في سند الحديث- الجمحي المكي، ليس هو نافعًا مولى ابن عمر - وهذا توهم لإزالة وهم، ما كان يليق بمثل الحافظ ابن حجر أن يتوهمه فيشتغل بدفعه؛ لأنه دفع لشيء غير موجود، ولا يتوهم أن يوجد؛ لأن المذكور في سند الحديث نافع بن عمر، وهو لا يشتبه قط بنافع مولى ابن عمر، حامل زاملة علم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولم

نعلم أن أحدًا نسب نافعًا مولى ابن عمر نسبة بنوة حقيقية إلى من اسمه عمر، فمن أين يجيء هذا التوهم الموهوم؟ الذي تبرع بدفعه أحفظ حفاظ عصره؟

غمزة ابن حجر للكرماني ليست من لآلي العلم ولكنها من أصدافه:

ومن العجب العجيب أن ابن حجر ذكر عقب كلامه مباشرة في تصحيح ما توهمه راوي الحديث، وهو نافع بن عمر الجمحي مأخذًا على العلامة الكرماني، فغمزه فيه غمزة دامية، فقال: ونبه الكرماني هنا على شيء لا يتخيله من له أدنى إلمام بالحديث والرجال، فقال: ليس هذا الحديث ثلاثيًا؛ لأن عبد الله بن أبي مليكة تابعي.

وهذه الغمزة أخف في تخيلها عند الكرماني من توهم ما توهم به ابن حجر في تخيله في حق نافع بن عمر الجمحي راوي حديث عبد الله بن أبي مليكة، فكان ابن حجر أحقَّ بها؛ لأن هذا التوهم لا يتخيله من له أدنى إلمام بالحديث والرجال، ولعل عذر الكرماني فيما توهمه من أن الحديث ثلاثي أن ابن أبي مليكة من كبار التابعين، يقول الحافظ ابن حجر في تهذيبه حاكيًا عنه أنه أدرك ثلاثين من الصحابة، ثم ذكر رواية أخرى أنه أدرك ثمانين منهم رضوان الله عليهم، فتوهمه صاحبيًا لكثرة عدد من لقيه منهم، وعدد من روى عنهم، ولا سيما على رواية أنه أدرك ثمانين صحابيًا، وكان ابن أبي مليكة من رجال ابن الزبير الملازمين له، وكان قاضيه ومؤذنه. لقد خف تخيل الكرماني أمام توهم الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى، ثم تابع البخاري الكلام بعد قوله: عن نافع بن عمر، فقال عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه وفد بني تميم – إلى أن قال فأنزل الله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾
(الحجرات : ٢)

وقد صدر البخاري رحمه الله تفسير سورة الحجرات بهذا الحديث مبوبًا له بقوله : باب

﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

ثم ذكر البخاري عقب ذكر الآية نص الحديث على أنه تفسير حديث لها ، كما هو نهج المحدثين في تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم بما يسمى التفسير بالمأثور ، وقد سبق أن ذكرنا نص الحديث كاملا ، وفيه : فارتفعت أصواتهما في ذلك أي في خلافهما على تعيين من يؤمره رسول الله ﷺ على بني تميم ، فأنزل الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

أوفق روايات البخاري سندًا وموضوعًا في هذه القصة:

وهذه الرواية أوفق الروايات بموضوعها ، وحديثها أصوب في مناسبة نزول الآية الملائمة لمقام الواقعة ، وأحسنها سياقًا ؛ لأنها عينت الآية النازلة ، وذكر سبب نزولها ، وهي من أتقن التناسب بين السبب والمسبَّب .

والرواية الثانية : قال البخاري رحمه الله تعال : باب

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج : قال : أخبرني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخبرهم : أنه قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر : أمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمِّر الأقرع بن حابس ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

حتى انقضت الآية.

ثم عقب ذلك البخاريُّ رحمه الله بقوله: باب قوله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (الحجرات: ٥)

وهذا الحديث مخالف لحديث الرواية الأولى من وجوه:

تخالُف بين حديث ابن أبي مليكة هنا وحديثه في الرواية الأخرى:

أولاً: اختلافهما في السند قبل ابن أبي مليكة، واتفاقهما في ابن أبي مليكة، إرسالاً في الظاهر وأخذًا عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في الواقع؛ إذ سند الرواية الأولى لم يذكر فيه حجاج بن محمد، ولم يذكر فيه ابن جريج.

ثانيًا: إن الرواية الأولى صريحة في أن الآية التي نزلت هي قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾

وأن الرواية الثانية صريحة في أن الآية التي نزلت هي قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

وهذا خلاف يباعد ما بين الروايتين في المقصود من إيرادهما.

ثالثًا: إن الرواية الثانية بينت أن سبب نزول

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

هو تماري الشيخين في اختيار من يؤمِّره رسول الله ﷺ على بني تميم في هذه القدمة التي أسلم فيها من أسلم منهم، وأن أصواتهما ارتفعت بين يدي رسول الله ﷺ تأثرًا من كل منهما بأحقية من أشار بتأميره مستهدفًا مصلحة الإسلام والمسلمين وقد أُنسيا مكانهما في مجلس النبي ﷺ فارتفعت أصواتهما بما أخرجهما عن وقار المجلس، فنزل قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

رابعًا : إن الرواية الثانية ذكرت الحديث عقب سوق البخاري قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

وهذا سياق يُشعِر بالنظر إلى الطريقة الحديثية بما يسمَّى بالتفسير بالمأثور أن الحديث ذكر تفسيرًا للآية المذكور عقبها ، مبينًا لسبب نزولها .

غموض سياق البخاري لحديث ابن أبي مليكة عقب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾ :

وهذا بعيد جدًا ، بل يكاد يكون باطلًا ؛ إذ لا تناسب مطلقًا بين آية المناداة من وراء الحجرات والحديث المذكور ؛ لأن أحدًا قط لم يقل إن الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا هما المناديين رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، ولا كانا فيمن نادوه كذلك .

وإجماع المفسرين قائم على أن المنادِين لرسول الله ﷺ من وراء حجراته ، هم أجلاف أعراب بني تميم الذين لم يكونوا قد أسلموا - كما ذكره ابن حجر في الفتح عن الطبري راويًا له عن مجاهد ، فقال : والذي يختص بهم -أي بالجفاة من بني تميم- قوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾

وما كان يليق أن يوضع هذا السياق الموهِم لعظيمة العظائم في إطار قصة الشيخين في هذا الوضع الشائك ؛ ولذلك قال ابن عطية -وهو أحد أئمة المفسرين- : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية -أي آية

﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾

- كلام جفاة الأعراب ، فأولى وأوجب أن تكون آية

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ ﴾

لا صلة لها من قريب أو بعيد بقصة خلاف الشيخين، بل هي من تتمة ما عيب على أجلاف تميم من سوء الأدب، والجهل بمقام توقير وتعظيم رسول الله ﷺ.

استشكال ابن حجر لا إشكال فيه:

والذي استشكله ابن حجر في هذا الموضع لا إشكال فيه؛ لأنه لفق الروايتين، فجعل الآيات من أول السورة إلى آخر قوله تعالى:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾،

كما هو في رواية ابن جريج نازلة في قصة الشيخين، وقد استبعدنا ذلك وهو جدير بالاستبعاد وعدم القبول، وبينا أن الآية الأولى التي افتتحت بها السورة كانت من قبيل التوطئة والتمهيد لما يذكر بعدها.

ثم إن البخاري رحمه الله بوب لآية المناداة من وراء الحجرات، وذكر عقبها حديث الحسن بن محمد، وهو الحديث المذكور فيه رواية ابن جريح، وهذا الحديث لا صلة له مطلقًا بهذه الآية، ولا مناسبة بين الآية المذكورة وبين ما جاء فيه، كما بوب البخاري رحمه الله لقول الله عز شأنه:

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ ﴾

وهو من متعلقات آية المناداة لاتفاق المفسرين على أن الضمائر في «أنهم» و«صبروا» و«لهم» و«إليهم» كلها راجعة للمنادين رسول الله ﷺ من وراء حجراته، ولم يذكر البخاري حديثًا بعد آية المناداة من وراء الحجرات.

اعتراف ابن حجر بأن آيتي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾و﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ ﴾ ذكرتا ترجمة بغير حديث:

قال ابن حجر في الفتح : هكذا في جميع الروايات ، الترجمة بغير حديث ، ثم قال ابن حجر : وقد أخرج الطبري والبغوي ، وابن أبي عاصم في كتبهم في الصحابة من طريق موسى بن عقبة عن أبي سلمة ، قال : حدثني الأقرع بن حابس التميمي أنه أتى النبي ﷺ ، فقال : يا محمد اخرجْ إلينا ، فنزلت الآية :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾

ولا ندري ما الذي يقصده الحافظ ابن حجر من وراء التقاطه روايات لبعض الجمَّاعين في كتب لم تُعرف بسلامتها من غير الصحيح ، ولم يرفع لها البخاري رأسه ؛ لأنها لا تتمشى مع منهجه في الثقة والصحة ؟

والموقف كان يقتضي من الحافظ ابن حجر أن يحقق هذه الروايات حتى يقف على حالها من الصحة أو غيرها ، ثم يبين أن صحتها عند من رووها لا تُلزم البخاري بذكرها ؛ لأنها ليست على مذهبه في الصحة ، ثم يبين حكمة صنيع البخاري في هذا الموقف المضطرب المتداخل .

التماس عذر للبخاري في تبويبه للآيات دون ذكر حديث يفسرها:

ومن المعروف المتعالم أن حديث هؤلاء العلماء لم يكن جاريًا على منهج الصحة البخارية في الجامع الصحيح ، فلم يذكره الإمام البخاري عقب الآية ليكون سببًا لنزولها ، ولعل البخاري وضع الترجمة ترقبًا لعثوره على حديث يجري وفق مذهبه في صحة السند .

في هذا العرض لقصة وفد بني تميم نماذج تمثل منهج المتخصصين في روايات أحاديث السيرة المطهرة وأحداثها ،

كمـا أن فيه لونًا من روايات المحدثيـن الذين أحلهم التاريخ مقاعد الصـدارة مـن علم الحديـث وروايته وسـما بهم إلـى ذروة التحقيق والنقد للأسانيد.

وهذه النماذج تظهر طرائق السيريين في تدوين أحاديث السيرة المشـرفة كما أنها تظهر شـيئًا من التسامح المتسـاهل في روايات أحاديـث السـيرة ووقائعها وقبـول مـا لا يقبله ثقـات المحدثين، وتظهر شـيئًا من المسـاهلة عنـد أهل الصدارة مـن المحدثين، وإلا فكيف سوغ البخاري رحمه الله في فضله ودقته في نقد الرجال وهو قمة القمم في أهل الصدارة ونقد الأسانيد، وتحقيق القول في معرفة الرجـال أن يروي عن ابن إسـحاق، وهـو صدر المتصدريـن لرواية أحاديث السيرة وقصصها، فقال في جامعه الصحيح: باب: قال ابن إسحاق: غزوة عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، بني العنبر من بني تميم، بعثه النبي ﷺ إليهم، وأصاب منهم ناسًا.

حكمة الإسهاب في هذا المقام هي قصد التحقيق الذي يفتح أعين عقول المفكرين:

ولـم نـر للبخاري رواية عن ابن إسـحاق في جامعـه الصحيح في كتبـه وأبوابه الأخـرى، والبخاري رحمه الله أعلـم بالرجال وأعرف بنقدهم، وفي طليعتهم ابن إسحاق.

وإنما أطلنا النفس في هـذا العرض، وأكثرنا فيه من الوقفات مع الرواة والحفاظ؛ لأن أحاديث السـيرة الشـريفة وأحداثها هي اللبنة الأولـى في بناء التاريخ الإسـلامي، الذي يجـب أن يكون صورةً لما ينبغي أن يُقرأ ويُكتب على أساسـه هذا التاريخ الذي شـوهته الفتن المتعجلة الجائحة الماحقة، واتخذته الدويلات القائمة على أنقاض هـذه الفتـن والمذاهـب المسـتوردة من وراء السـهوب والرواسـي

سـلاحها، مما يجـب أن ينقَّى منه هذا التاريـخ المظلوم دون تهيب لنقد الأحداث والأشـخاص؛ لأن الإسـلام وتاريخه الواقعي، ونظامه الاجتماعـي، وشـرائعه العقائديـة والتعبديـة وأوضاعه السياسـية والتربويـة، وآدابه الخلقية، أجـلُّ وأعظمُ وأرسـخُ وأثبتُ وأصلبُ، وأقوى من أن تهزه عاتيات العواصف المتربصة؛ لأنه دين الله العليم الحكيـم، ونظامـه الذي اختاره لتعيـش عليه الحياة بمـن فيها وما فيها، وتحيا في ظله قويةً متماسكةَ العناصر الأصيلة في بنائه

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(يوسف: ٤٠)

فالذين تأخذهم الرعدة مرتجفين رعبًا من نقد التراث الإسـلامي لتنقيته مما دخل فيه من الغلس والدغل عليهم أن ينزعوا بشـيء من الشـجاعة النفسية ليسـتعيدوا قراءة هذا التراث على ضوء الحقائق القرآنية التي لم يمسسـها التأويل المتعسـف، ولم يسـيطر عليها الاستسـلام المخـرف، ولم يحتضنهـا الجهل المحـرف، وعليهم بعد تنقية هذا التراث من الأسـاطير والأباطيل أن يعيدوا تدوين هذا التاريخ على ضوء حياة رسـول الله ﷺ ومجتمعه المسـلم الذي رباه على يديه تربية جعلت من أمته الإسـلامية خير أمة أخرجت للناس، واسـتخلفهم في الأرض ما كانـوا قائمين بأوامر هـذا الدين توحيدًا خالصًـا لله تعالـى، وتعبدًا له بما شـرع، ونظامًا يقـوم على دعائمه تطبيقه العملي في الأدب السلوكي، والأخلاق العملية.

فلما تفرقوا شـيعًا وأحزابًا، واسـتعبدتهم رذائل الشهوات سلط الله عليهـم من لا يدفع عن نفسـه، فملك زمـام حياتهم حتى أنزلهم منـازل الذل والهـوان، ولم تسـتقم قناتهم حتى يعـودوا كما كانوا غرباء بإسـلامهم فـي الأرض، فتعـود إليهم عزتهم واسـترخاصهم

للموت في سبيل الحفاظ على كرامتهم لتوهب لهم الحياة.

رواية تؤكد أن لبني تميم قدماتٍ بعد قدمتهم الأولى التي استبعدنا إسلامهم فيها:

وحديث الرواية الثانية من روايتي البخاري فيه إشعار بأن ركب تميم المذكور قدومه في هذا الحديث كان غير الركب الأول الذي قدم لافتداء أسراهم الذين أخذهم عيينة بن حصن الفزاري، حينما بعثه النبي ﷺ على رأس سرية لتأديب بني تميم على ما كان منهم من مصادرة صدقات خزاعة أو بني العنبر أن تصل إلى رسول الله ﷺ لاستكثارهم لها.

وفي هذه القدمة الأولى كان ما كان من سوء الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ مخاطبة خلت من التوقير والتعظيم، وعرفان مكانته ﷺ من الله؛ إذ نادوه من وراء حجراته في صياح أحمق ولفظ صاخب، فخرج ﷺ إليهم حين حانت صلاة الظهر، والناس ينتظرونه للصلاة، فوقف معهم وكلموه في فداء أسراهم، فامتن عليهم بإطلاق نصف الأسرى بغير فداء، وفاداهم بالنصف الآخر ليتألف قلوبهم. ولكن أجلاف وفد تميم أبوا أن يقابلوا هذه المكرمة العظيمة إلا باللجاج فيما زين لهم الشيطان ليلبسهم جلابيب الخزي والخذلان، فطلبوا مفاخرة رسول الله ﷺ، فنهنههم عن غرورهم فلم يزدجروا وأصروا واستكبروا استكبارًا، فلما رأى منهم التصميم على ما طلبوه أجابهم متلطفًا بهم، وأذن لخطيبهم وشاعرهم، فقالوا ما ألقاه دنس الوثنية الجاهلية على ألسنتهم، ثم أمر ﷺ خطيبه ثابت بن قيس الأنصاري أن يرد على خطيبهم وأمر شاعره حسان بن ثابت أن يجيب شاعرهم، فألقماهم الحجر، واستحوذ عليهم الذل والهوان، وتسللوا إلى قومهم لواذًا، وعلموا أنهم لا طاقة لهم برسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم، فكان ذلك أول ما هُديت تميم إلى أن تعرف الحق لله، وأن الإسلام هو دين الله الذي أنزله على عبده ورسوله

محمد ﷺ ، فترحل منهم وفد آخر لمبايعة رسـول الله ﷺ والدخول في الإسلام على يديه وهدايته.

وهـذه هي القدمة الثانية لركبٍ من تميم، قدموا فيها ليسـلموا، وكانـت لاتزال الجلافة تسـيطر علـى بعضهم، والجفـاء الجاهلي يفرض سلطانه على تصرفاتهم، فلم يكد يراهم رسول الله ﷺ حتى بادرهـم بتلطفـه ليؤنس مجالسـتهم، فقال لهم ما جـاء في حديث عمـران بن حصين رضـي الله عنهما عند البخـاري من طرق صفوان بـن محرز المازني، قال عمران: إن نفرًا من بني تميم أتوا النبي ﷺ ، فقال: «اقبلوا البشـرى يا بني تميم» قالوا: يا رسـول الله، بشرتنا فأعطنـا، فرُئـي ذلك فـي وجهه، وفي روايـة أخرى عـن عمران بن حصين عند البخاري أيضًا من طريق صفوان بن محرز مع تخالف في السـند، قال عمران رضي الله عنه: جاء نفـر من بني تميم إلى النبي ﷺ ، فقـال: «يا بني تميم، أبشـروا» قالوا: بشـرتنا فأعطنا، فتغير وجهـه، وهذه الجملـة مبينة لما جاء في الحديـث الأول من التعبير بقوله: فرُئي ذلك في وجهه ﷺ .

ولمـا رأى الشـيخان رضـي الله عنهمـا مـا عنـد بنـي تميـم من العنجهيـة، وإيثـار الدنيـا، وكراهية رسـول الله ﷺ لذلـك منهم، وظهور آثار هذه الكراهية على وجهه ﷺ أشـارا على رسول الله ﷺ بتأمير أحد أشـرافهم عليهم ليأخذهم بأدب الإسلام، وأدب مخاطبة رسـول الله ﷺ ، فأشـار الصديق على رسـول الله ﷺ برجل، وأشار عمـر برجل آخر فتماريا وارتفعـت أصواتهما، فنزلت آية النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ ، فانتهيا وبالغا في الانتهاء حتى ما كانا يكلمانه ﷺ إلا كأخي السرار، فمدحهما الله مدحًا تقطَّع دونه رقاب الأعلين من المؤمنين، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾

(الحجرات : ٣)

فحديثا عمران بن حصين احتمالهما قويٌّ في جانب بدء إسلام وفد تميم في هذه القدمة الثانية بدليل قولهم : بشرتنا يا رسول الله فأعطنا ؛ لأن هذا النداء التنبيهي في قولهم : بشرتنا يا رسول الله دليل ظاهري على إيمانهم برسالته ﷺ ، وقولهم : فأعطنا تعبير يمثل ما انزوى في حنايا أنفسهم من بقايا الجفاء والحرص على طلب الدنيا ، فإذا انضم إلى هذا تعجل الشيخين رضي الله عنهما بمشورتهما في تأمير أحد أشرافهم عليهم ليملك في يديه زمام توجيههم وإرشادهم ليتفقهوا في شرائع الإسلام وآدابه مع الأفراد والجماعات عامة ، ومع رسول الله ﷺ خاصة لما أقامه عليه من المكانة الخاصة به في التوقير والتعظيم .

ولعل الإسلام الذي قصده ابن إسحاق في قوله : فلما فرغوا أسلموا ، وجوزهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهم - هو ما كان في قدمتهم الثانية ويراد من قوله : فلما فرغوا فراغهم بانتهاء أمرهم إلى الإسلام ومبايعة رسول الله ﷺ ، للذي سمعوه ورأوه من محاسن شيمه ، ومكارم أخلاقه ومعالي شمائله معهم ومع إخوانهم الذين سبقوهم بالقدمة الأولى التي كان فيها ما كان ؛ مما فصلناه فيما سبق تفصيلاً لا يبقى معه شيء من التطلع إلى شيء .

الفهرس

غزوة تبوك وهي غزوة العسرة أسبابها وأحداثها وآثارها ٣
بيان معنى التوبة في حق النبي ﷺ ٤
معنى التوبة على المهاجرين والأنصار في الآية ٥
حكمة تخصيص المهاجرين والأنصار بالذكر في الآية ٧
لماذا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة ٧
اختلاف الروايات في أسباب غزوة تبوك .الرواية الأولى وتحقيق القول فيها...... ٨
الزرقاني يصرح ببطلان هذه الرواية جريًا وراء الواقدي مع احتمال صحتها ١٠
الرواية الثانية في سبب غزوة تبوك والتعليق عليها...................١٢
الرواية الثالثة في سبب هذه الغزوة ونقد ابن كثير لها ١٣
تفنيد هذه الرواية متنًا وبيان سخفها وبطلانها ١٤
الرواية الرابعة في سبب هذه الغزوة وتحقيق ما جاء فيها.................. ١٦
ترجيح هذه الرواية على سائر الروايات مع شيء من التوضيح ١٩
إعداد المجتمع المسلم نفسيّا وماديًا لتحقيق نشر عموم الرسالة سبب هذه الغزوة ٢٠
النبي ﷺ يضع شعار الإخاء التكافلي بين المجتمع المسلم.......................... ٢١
الرواية الثانية في سبب غزوة تبوك والتعليق عليها........................ ١٢
الإعلان عن غزوة تبوك إشعار بعظم منزلتها بين الغزوات ٢٢
الإعداد النفسي للمجتمع المسلم لهذه الغزوة كان ملائما لعظمة هدفها ٢٣
سلطان الضمير والحب كان منبع الإعداد النفسي والمادي ٢٤
أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- سيد المجتمع المسلم في البذل والإنفاق ٢٤
إنفاق عثمان كان المثل الأعلى في مكارم الإسلام ٢٥
مناقشة ابن حجر في تأويله لما جاء في حديث حذيفة عند ابن عدي ٢٥
موقف نبيل في المكارم تنافس في ميدانه المتنافسون ٢٧
مجمل الروايات في مكارم عثمان تكفي في إبراز تساميه في الإنفاق على كل منفق في سبيل الله ٢٨
غزوة العسرة كانت تمحيصاً وامتحانا لصدق الإيمان وإخلاص اليقين........ ٢٩
إرجاف المنافقين وبث سموم نفاقهم ليثبطوا المؤمنين عن المسير للجهاد ٣٠
كشف سوءات النفاق وإفساد تدبير المنافقين................................ ٣١
أخبث موقف لأخبث جرثومة في النفاق ٣١

بين رسوخ الإيمان ولؤم النفاق ٣٢
موقف لأبي موسى وأصحابه الأشعريين يمثل صدق الإيمان وإخلاص اليقين ٣٥
قصة علبة بن زيد أحد البكائين ومناجاته ربه وتصدقه على كل مسلم بكل مظلمة أصابه بها ٣٧
مواقف من في قلوبهم مرض للذين كذبوا الله ورسوله وإخوانهم المعذرين من الأعراب ٣٨
تخلف بعض صادقي الإيمان عن محمد رسول الله ﷺ ٤١
قصة الثلاثة الذين خلفوا ومافيها من عبر وعظات وتلطف ٤١
تهدي الصحابة للخروج من المآزق بما يمحو آثارها ٤٤
موقف كعب بن مالك نموذج حي للإيمان الصادق ٤٤
موقف كعب بن مالك في تخلفه حتى تاب الله عليه كما يصوره بأسلوبه ٤٦
موقف إيماني بين أبي قتادة وكعب بن مالك ٤٨
أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم على رأس أربعين ليلة من ابتداء المحنة وموقف امرأة هلال ٤٩
فرحُ المسلمين بالتوبة على إخوتهم الثلاثة واستقبال الناس كعبًا بالتهنئة ٥١
تهنئة رسول الله ﷺ كعبًا بتوبة الله عليه وتقبيل كعب يده وركبتيه ٥٢
ترجيح تعدد قصة المتصدق بصاع التمر الملموز من المنافقين ٥٥
رواية تخلف أبي خيثمة عند الطبراني كما يرويها عن نفسه ٥٦
عبر واعظة في آيات تربية متلطفة ٥٧
صدق إيمان المتخلفين جعلها نماذج لتربية المجتمع المسلم ٥٧
خصائص غزوة تبوك جعلت مسألة التخلف عنها عظيمة ٥٨
بهذه الخصائص انفردت غزوة تبوك بوضعها وقدرها ٦١
كان حديث كعب بما حواه من المعاني والحقائق نبراس هداية للخطائين ٦٢
عظم أثر توبة الثلاثة الذين خلفوا ٦٣
الأصفياء يتوبون من قريب ٦٤
غزوة تبوك غزوة بيضاء وهي أعظم الغزوات ٦٥
اختلاف الروايات في عدد جيش تبوك وتحقيق الراجح من هذه الروايات ٦٦
مناقضة هذه الرواية البلهاء حماية لمن يقرؤها في مصادرها ٧٠
تشابه بين خبث اليهود وفجور المنافقين ٧٣
مشاورة يتعين فيها موطن الشورى ٧٤

في قول عمر- رضي الله عنه -بيان تحقق هدف هذه الغزوة ٧٥
رد هرقل على كتاب رسول الله ﷺ في تبوك بأنه مسلم ٧٧
حيرة هرقل وخوفه من قومه وضنه بملكه حال بينه وبين الإسلام ٧٩
قصة رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بكتاب هرقل ٨٠
سبب هذه الغزوة الحقيقي هو الإعلان العملي لعموم الرسالة ٨١
وفي هذه الغزوة العظمى وضع رسول الله ﷺ قاعدة الحجر الصحي ٨٢
مصالحة يحنة بن رؤبة وقومه ٨٣
نص آخر لكتاب مصالحة يحنة بن رؤبة ٨٤
قص أجنحة الروم بهذه المصالحات وتحرير متنصرة العرب من التبعية الرومانية ٨٥
سياسة حكيمة اختطها رسول الله ﷺ لإعلان عموم دعوته عمليًا ٨٦
تشريف هذه الغزوة بما وقع من آيات كونية ٨٧
في هذا الإطار نذكر بعض الآيات الكونية التي خرجها الأئمة في كتبهم ٩٠
حديث عمر عن الآية الكونية الأولى من معجزات غزوة تبوك ٩١
مدة إقامته ﷺ بتبوك واختلاف الروايات في ذلك ٩٤
كانت غزوة تبوك مجالاً لإظهار قوة الإسلام ٩٤
عودته ﷺ إلى المدينة مكللا بتوفيق الله وإعزازه ٩٥
من روائع أحاديث الوفود ٩٧
قوة إيمان المجتمع المسلم كانت أقوى عوامل استجابة الوفود ٩٨
رأى ابن حجر في ابتداء الوفود ومناقشته................................ ١٠٠
أول من قدم وفد مزينة، يقدمهم خزاعي بن نهم ١٠١
بحث مع الحافظ ابن حجر فيما نقله عن ابن سعد ١٠٢
كلام ابن كثير في تقدم الوفود على فتح مكة ١٠٣
نقد ابن كثير للأئمة الذين لم يستوعبوا الوفود ١٠٣
اختلاف الروايات في عدد الوفود ١٠٨
حديث وافد السباع مكانه بين المعجزات ١٠٨
موقف ابن كثير أصعب من موقف ابن سعد ١٠٩
هدفنا من هذه البحوث إبراز معالم منهج الرسالة في ضوء النقد الممحص ١١٢
تحقيق عدد الوفود في أشهر مؤلفات السيرة ١١٣
تأويل ما نقل الزرقاني عن الشامي في عدد الوفود ١١٥
فجور عامر بن الطفيل وخذلان الله تعالى له ١١٧
قدوم أول وفد لبني تميم ١١٩

سبب قدوم أول وفد من تميم وتأديب قومهم على يد مَن ليس منهم، ثم انزلق فكان منهم ١٢٢
تصدي تميم لمصدقي النبي ﷺ في أموال خزاعة ١٢٢
نظر وتأمل في منهج الخطيبين ١٢٤
سياق قوله ﷺ إن من البيان لسحرًا ١٣١
مناقشة قول ابن إسحاق: «فلما فرغ القوم أسلموا وجوزوا» ١٣٢
وجوه استبعاد ما زعمه ابن إسحاق من إسلام وفد تميم ١٣٣
حرص الوفود على التفقه في الدين ومكارم رسول الله ﷺ فيهم ١٣٨
القرآن الحكيم يرد دعوى ابن إسحاق في إسلام وفد بني تميم ١٤٠
كلام أبي حيان مغلق المنافذ في فهمه ١٤٣
مجمل قصة وفد تميم في أول قدمة لهم كما ساقها منهج مؤلفي السيرة ١٤٥
موازنة بين منهج علماء الحديث ومنهج علماء السيرة ١٤٧
استظهار أن إسلام بني تميم بدأ بعد قدمتهم الأولى ١٤٨
سبب قدوم أول وفد من تميم على رسول الله ﷺ وغزوة عيينة بني تميم ١٥٠
قدمة أخرى لبني تميم أخرجها البخاري ليس فيها ما في القدمة الأولى ١٥٢
الحافظ ابن حجر يقحم على رواية البخاري ما يشرحها من كلام ابن إسحاق ١٥٤
إمارة سرية عيينة لبني تميم يخرجها البخاري عن ابن إسحاق ١٥٤
تناقض بين موقف عيينة بن حصن الذي أخرجه البخاري وموقفه الذي أقحمه ابن إسحاق ١٥٥
غمــوض فــي روايــات البخاري لأحداث قصة وفــد بني تميم وما نــزل فيها من الآيات القرآنية ١٥٦
التماس حكمة لصنيع البخاري في روايات القصة ١٥٧
دعوى ابن حجر أن الذي نزل متعلقًا بقصة الشيخين هو قوله: «لا تقدموا» غير مسلمة ١٥٨
لمحات من كلام المفسرين في الآيات من أول السورة لعلها تضع الأمور في مواضعها ١٥٩
تخالف حديث ابن أبي مليكة في السند والمتن ١٦١
غمزة ابن حجر للكرماني ليست من لآلي العلم ولكنها من أصدافه ١٦٢
أوفق روايات البخاري سندًا وموضوعًا في هذه القصة ١٦٣
تَخالُف بين حديث ابن أبي مليكة هنا وحديثه في الرواية الأخرى ١٦٤
استشكال ابن حجر لا إشكال فيه ١٦٦
التماس عذر للبخاري في تبويبه للآيات دون ذكر حديث يفسرها ١٦٧
حكمة الإسهاب في هذا المقام هي قصد التحقيق الذي يفتح أعين عقول المفكرين ١٦٨
رواية تؤكد أن لبني تميم قدماتٍ بعد قدمتهم الأولى التي استبعدنا إسلامهم فيها ... ١٧٠